سلسلة
عندما نطق السُّراة

التَّوحِيدُ

عَقِيدَةُ الأُمَّةِ مُنذُ آدم

قسم الدراسات والبحوث
جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية





بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

التوحيد عقيدة الأمة
منذ آدم



الكتاب: التوحيد ... عقيدة الأمة منذ آدم

سلسلة: عندما نطق السراة

تأليف: قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

Tel: (+973) 17273787
Fax: (+973) 17274787
P.O.BOX 10493
Manama-Kingdom of Bahrain
www.tajdeed.org
E-mail: tajdeed@tajdeed.org

دار كيوان

للطباعة والنشر والتوزيع

الحلبوني – دمشق – سورية – تلفاكس: ٢٢١٧٢٤٠ ١١ ٠٠٩٦٣
E- Mail: Kiwanhouse@mail.sy

سلسلة عندما نطق السراة

التَّوحيدُ عقيدةُ الأمَّةِ منذُ آدم

قسم الدراسات والبحوث

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

مملكة البحرين

ملاحظة هامة

تم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في سبتمبر ٢٠٠٥، ووزعت نسخ إلكترونية تجريبية منه عبر موقع جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية في مملكة البحرين عبر الرابط **www.tajdeed.org**

المقدمة

لا يختلف اثنان في أنّ النزعة الدينية لدى الإنسان قديمة.. قِدَم وجوده على الأرض، أمّا كيف نشأت فيه هذه النزعة؟ وهل كانت بتأثير البيئة والمحيط؟ أم ارتبطت بأصل كامن في تكوينه الداخلي؟ فهذا ما اختلف فيه الباحثون بحسب اختلاف الأيديولوجيات والمصالح، وعليه لم يُنظر للموضوع بعين الدقة العلمية، وكان لابد- للإجابة عن هذه التساؤلات- في البداية من تحديد مركز الإنسان الأول ونقطة انطلاقته، واستكشاف جذور حضارته بدراسة آثارها، وما كان ذلك ليتم لولا التقدم العلمي الهائل، فكانت المبادرة بيد أولئك الذين امتلكوا ناصية العلم بعد أن ظهر بمنهجه المادي على خلفية الصراع مع السلطة اللاهوتية للكنيسة التي صادرت الإبداع وحرية التفكير، وكانت النتيجة أن حُسم الصراع لصالح العلم ولكن بعيداً عن الروح والأخلاق أيضاً!

وكانت منطقتنا بعمقها التاريخي المعنوي، والاستراتيجي المادي والبشري، محطّ أنظار الطامعين وبدل أن يُوضع العلم في خدمة البشرية استُغل في تحقيق الأطماع الاستعمارية في المنطقة، فمزّقوها إلى أشلاء واصطنعوا بينها حدوداً جغرافية وأخرى أيديولوجية فهذه موالية للغرب وأخرى للشرق، وزرعوا بينها بذور الشقاق والنزاع. ولم يكتفوا بالغزو العسكري الخارجي لأنّه إلى زوالٍ مهما طال به الزمان، فعمدوا إلى غزوها من الداخل كفعل الأرضة تأكل منسأتها[1] حتى لا تقوم لها قائمة، عمدوا إلى تراثها الحقيقي فشوهوه وحرّفوه خصوصاً ما يشير منه إلى صلة هذه الأمّة بالسماء وإيمانها بخالقها، لأنّهم أدركوا أنّ به نهضتها وعزتها إنْ هي رجعت إليه وتمسكت به، ساعدهم على ذلك رحلاتهم الاستكشافية وبعثاتهم العلميّة لدراسة المنطقة وآثارها

[1] - الأرضة: دويبة أرضيّة تأكل الخشب، المنسأة: عصا الاتكاء.

الحضارية المندرسة والمنطمرة بعضها تحت التراب من مدونات ورُقُم وجداريات، وكان لهم سبق دراستها وتحليلها وفق منظورهم وخلفيتهم المتأثرة بتزويرات اليهود عن تاريخ المنطقة وجغرافيتها، وكان أن وُظّفت هذه الدراسات لخدمة المشروع الاستعماري الذي كان من نتيجته غرس الغدة السرطانية في قلب الوطن العربي، هذا فضلاً عن أخطاء الترجمة المقصودة أو بغير قصد، لتطلع علينا دراساتهم عن تاريخ شعوب هذه المنطقة وعقائدها، تحت عنوان المنهجية العلميّة المدعاة، باستنتاجات خاطئة، تصف في جانب منها تاريخنا القديم ولاسيما في بلاد وادي النيل بالشرك وعبادة الأوثان وتعدّد الآلهة! في خطة مدروسة تقودنا إلى التسليم بالنتيجة المعدة سلفاً وهي أنّ التوحيد هناك بدأ بموسى(ع) وما قبله شرك ووثنية! وتقطع في جانب آخر منها الفروع عن الأصول بتنكرها لحقيقة الأصل العربي لسكان هذه المنطقة، لتكون المحصّلة أنّ العرب هم سكان شبه الجزيرة العربية فقط، وأنّ تاريخهم يبدأ بما قبل البعثة النبوية أي بعصر الجاهلية، في رسالة واضحة للعرب مؤداها القول: أنّ هذه بدايتكم وأصولكم.. جهلٌ وظلمات وتخلف! وبهذه الطريقة الخبيثة فصلوا هذه الأمّة عن عمقها التاريخي والحضاري، إلا قليلاً من المنصفين الذين وضعوا النقاط على الحروف واعترفوا بالفضل لأهله.

ومما زاد الطين بلّة أنّنا قبلنا بذلك التوصيف لنا من قبل الغرب، وأخذنا نردّده، ولا زلنا، لأجيالنا القادمة عبر مناهج الدراسة ومنابر الإعلام والتثقيف الديني، دون أن يكون لعلمائنا ومثقفينا دورٌ يُذكر في تمحيص هذه المقولات ولا في دراسة تاريخ المنطقة واكتشاف آثارها وتفكيك أساطيرها، فنحن الأقرب من غيرنا إلى فهمها، والأجدر بمعرفة اللغة التي كُتبت بها لأنّها لغتنا، وبالتالي التوصّل إلى حقيقة ترابط تراث هذه الأمّة وتواصله ووحدته منذ القدم، ولكن تجدنا على عكس ذلك كله، اكتفينا بالنقل عن الآخرين والترويج لبضاعتهم! تجدنا- على سبيل المثال- حين الكلام عن المكوّن السكاني لشبه الجزيرة العربية قبل البعثة نقول: هناك اليهود والنصارى والعرب عبدة الأوثان! وكأنّ اليهود والنصارى هؤلاء ليسوا عرباً! وكأنّ الذين ارتحلوا شرقاً وغرباً من سريان وآموريين وفينيقيين تركوا بصماتهم الحضارية أينما حلّوا لا يمتّون إلى هذه المنطقة بصلة! عندئذٍ، وفقط عندما غابت هذه الحقيقة

عن وعينا، ساغ لنا وصمُ الأولين بالشرك والوثنية وتعدّد الآلهة دون أدنى إحساسٍ منا بالإجحاف في حقهم، أو النكران لفضلهم!

فهل كانوا كذلك حقاً؟ هل كان الأولون فعلاً يعبدون آلهة متعددة؟ وهل يصح القول- على إطلاقه- أنّهم عبدوا النجوم والكواكب والحجر والشجر والماء والنار والحيوان، كما عبدوا الأولياء والآباء أيضا؟ أم أنّهم ظلوا لفترات طويلة موحّدين ومؤمنين بتعاليم السماء، واستطاعوا بهذا الإيمان أن يشيدوا حضارتهم في بلاد سومر ووادي النيل، ولكننا نحن الذين نقصر اليوم عن فهم عقيدتهم؟ ثم أين ذهبت ثمرة دعوات الكثرة الكاثرة من الأنبياء والرسل طوال التاريخ الإنساني؟ وإذا كان الإنسان في أحقابه الأولى ليس موحداً -كما يتوهمون- فكيف وصل إلى عقيدة التوحيد؟ كيف نشأت النزعة الدينية عند الإنسان الأوّل؟ وهل صحيح أنّه تدرّج من طور التعدّد إلى طور التمييز والترجيح ومنه إلى الوحدانية كما يذهب إلى ذلك أكثر الباحثين في تاريخ الديانات وأصلها؟ أم أنّه تعلّمها تعليماً ربّانياً منذ البداية؟

وانطلاقاً من هذه الإشكالية نرى أنّ هذا البحث يسعى للإجابة عن مجموعة من التساؤلات يمكن حصرها فيما يلي:

١- هل أنّ الإنسان الأول عاش بلا عقيدة، ولم يكن لديه أدنى تصور عن الخالق والخلق والكون؟.. أم أنّ ثمة مشروعاً ربانياً بدأ مع بدايات خلق الإنسان لتأهيله لخلافة الأرض؟

٢- وهل مرّ على الأمّة زمانٌ خلت فيه من الموحّدين للّه تعالى؟ أم أنّ تراث الأمّة يحتفظ لنا بنماذج من الموحّدين طوال التاريخ؟

٣- وكيف عبّر أولئك الأوائل عن عقيدتهم التوحيدية؟ وما تفسير ما قيل عنهم من أنّهم عبدوا آلهة متعددة؟

وفي ضوء هذه التساؤلات جاء البحث في ثلاثة فصول، يعتني الأول منها بإثبات التوحيد منذ بداية خلق الإنسان وأنّه مرتبط بالمشروع الرباني لجعل الإنسان خليفة، بينما يورد الفصل الثاني ما يثبت استمرارية خط التوحيد وتواصله بذكر نماذج

للموحّدين عبر الأزمان، أما الفصل الأخير فيعالج بالتحليل المنطقي واللغوي كيف عبّر الأولون عن عقيدتهم التوحيدية، والأسباب التي أدت إلى تشويه هذه العقيدة.

ولابد للقارئ أنْ سيلحظ - بقليل من التأمل- تأثير إجابات تلك الأسئلة على نظرته إلى مَنْ سبقه في الإنسانية إنْ بالسلب أو بالإيجاب، مما ينعكس عليه في نظرته اليومَ تجاهها، الأمر الذي تُعدّ آثاره خطيرة في حالة الإجابة الخاطئة على تلك الأسئلة! إذْ سينأى بنفسه عن النظر إلى الأولين كامتداد تاريخيٍ له، وسيربأ بها عن أنْ تكون بينه وبينهم صلة هي صلة الإسلام، باعتبارهم- حسب ظنّه- أهل وثنية وشرك! وليته يقف عند حد الاعتقاد بما ليس فيهم إذن لهان الأمر، ولكنه يتعدّاه إلى التعامل على أساس ذلك الاعتقاد.. إلى التقاطع والتدابر والتفرّق في الدين وكأنّنا لم نسمع قوله تعالى: (**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**)(الشورى:١٣)؟ وقوله أيضاً: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) (الحجرات:١٣)؟ فأين التعارف في مناهجنا؟ بل أين هو قبل ذلك في وعينا وتفكيرنا؟

إنّ الإجابات الخاطئة عن تلك الأسئلة المتعلقة بعقيدة الأولين، أو تركها معلقةً دون إجابة بحجة أنّها لا تهمنا اليوم، ساهم بشكل أو بآخر في بناء العقلية الضيقة التي لا ترى في الدين أفقه الواسع وفضاءه الرحب، فأقامت الحواجز والسدود بين أصحاب الشرائع السماوية، ورسمت الحدود فيما بينها، ففريق في الجنة وفريق في السعير، بل وصل الأمر إلى حدّ التحزّب المذهبي بين أصحاب الشريعة الواحدة، وبات كلُ حزب بما لديهم فرحين، فصرنا إلى هذا التشرذم والضياع دون أن نرى بصيص النور في نهاية النفق، وطالما بقيت هذه العقلية هي السائدة فلن يتغير من الأمر شيء، فهل تساهم محاولات إعادة النظر بعين الباحث عن الحقيقة، بعد أن نخلع عن أعيننا عدسات الاتهام والريبة التي طالما نظرنا بها إلى تراثنا القديم، في تأسيس أولى خطواتنا نحو التغيير؟ نرجو ذلك.

الفصل الأول

المشروع الربّاني .. الإنسان خليفة

لايزال التفسير المادي لتطور الإنسان عاجزاً عن تفسير طبيعة الطفرة الحضارية التي حدثت للإنسان منذ أواخر آخر العصور الجليدية، حيث منها بدأت طفرة الحضارة والصناعة والمدنية، قفزة لا يمكن تفسيرها بالنمو الطبيعي المفترض لحيوانٍ ما، مهما كان ذكياً، من حالة التوحش إلى حالة المدنية.

فالأنثربولوجيا[١] لا يثبت التدرّج في تطور الإنسان، فإذا ما افترضنا أن وجود الحيوان البشري قد حدث قبل مليون عام فإنّ كل الآثار والمكتشفات تدلل على أنه ظلّ مدة ٩٥٠ ألف سنةٍ منها حيواناً متوحشاً وهمجياً ثم فجأة بدأت بوادر الحضارة في قفزات لا يمكن تفسيرها. فإذا ما علمنا أن الأطروحات الدينية لا تذهب بوجود الإنسان المعلَّم إلى أبعد من هذا التاريخ، علمنا أن الأديان تتحدث عن الإنسان وأنه خلق آخر غير البشر الذي يتحدثون عنه. ومهما بقي العالم فلن يتطور حيوان آخر ليبلغ مبلغ الإنسان لأنّ هذا محال، لم يحدث ولن يحدث حتى لو بقيت النملة تكرر وجودها بلايين السنين، فهناك إضافة جديدة خارجية قد دخلت على المخلوق البشري قد ارتفعت به عن الهمجية وهي ما تسميها الأديان بـ"الروح" النفخة القدسية وهي غير النفس التي هي قوام الحياة المادية كما في سائر الأحياء.

مدخل

في الأبحاث التي تتناول حياة الإنسان الأوليّة على هذه الأرض يصور الباحثون الإنسان البدائي على أنّه عاش ردحاً طويلاً من الزمن دون أن يكون لديه أدنى معرفة بخالقه وخالق هذا الكون وما حوله وذلك لمحدودية عقله! "فقد عاش أول أمره حياة

---

[١] - الأنثربولوجيا (Anthropology)؛ علم الإنسان: علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته. منير البعلبكي، **المورد**، ص٥٢.

بدائية تحوطها مئات الأخطار والأسرار، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع إدراكها إدراكاً علمياً على أن يتوهم لها تفسيراً.. ويتخيل أصولاً ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه. وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التي تحيط به إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات. وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول إليه فيجعله إلها، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين.. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد.. كلها آلهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص(!).. ويتناقلها خلفا عن سلف، جيلا بعد جيل"[1].

هكذا يُنظر إلى الإنسان وهو في مراحل حياته الأولى، كائناً عاش بلا عقيدة، وبلا تصور - ولو كان بسيطاً- عن خالقه وخالق هذا الكون وما فيه مما حوله، خُلق وهو خالٍ من العقيدة وتُرك للظروف المحيطة به لتُشكّل له عقيدته عبر تفاعله مع سلسلة الأحداث الطبيعية التي تجري أمامه، فالرعد والبرق والمطر، والأعاصير والزلازل والبراكين، والشمس والقمر وحركتهما الظاهرية من الشروق إلى الغروب، وما ينتج لهما أحياناً من اختفاء جزئي أو كلي على غير العادة (الكسوف والخسوف)، كل تلك الظواهر هي التي ألهمته العاطفة الدينية! فهو نتيجة ضعفه وعدم استيعابه لما يجرى حوله دَاخَله الخوف منها وبالتالي احتاج إلى الالتجاء إلى ركن وثيق فكانت هذه بداية نشوء العاطفة الدينية!! فكلّ ظاهرة لم يفهمها الإنسان البدائي وضع لها إلهاً وعبده، فإذا فاض نهرٌ ولم يستطع أن يمنعه أو يحول دونه كان يضع لهذا النهر آلهة أو ربّاً ويعبده، وإذا رأى البرق أو الصاعقة وقد قتلت إنساناً وضع لها رباً وبدأ بعبادته وتقديم الأضاحي له!

أما فكرة الآلهة المتعددة فمنشؤها، كما يرى البعض، هو وجود المتناقضات في هذا الوجود، فهناك الخير والشر، والحياة والموت، والخصوبة والجدب، والنور والظلام، فجعلوا لكل ظاهرة من تلك الظواهر إلهاً خاصا بها حيث لا يمكن تصور اجتماعها في إله واحد (**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**)(صّ:٥). كما

[1] - سليمان مظهر، **قصة الديانات**، ص١٩.

أنّ الإنسان، نتيجة مستواه المعرفي المحدود آنذاك، عبد كل شيء تقريباً، عبد الحجر والشجر والماء والنار والهواء والتراب وكلّ رموز الأشياء أو الكائنات الموجودة معه في الأرض! فإذا صحّ كلُ ذلك، فكيف تكون للّه سبحانه الحجة البالغة على أولئك الأقوام في عدم معرفته، والقيام له بحق عبادته؟

وأما بالنسبة إلى مراحل تطور العقيدة عند الإنسان، يقول "العقاد": "ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى"[1]. ويقول أيضاً: "يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب، وهي: دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدانية.

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات. ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة ربّ تعبده، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور، وتقبل الصلوات والقرابين.

وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ ربّ منها في البروز والرجحان على سائرها. إما لأنّه ربّ القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة، وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة.

وفي الدور الثالث تتوحد الأمّة، فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمّة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها"[2].

---

[1] - عباس محمود العقاد، **الله**، ص٦.

[2] - عباس محمود العقاد، **الله**، ص١٣.

وتفترض وجهة النظر هذه أنّ الأمّة لا تصل إلى هذه الوحدانية الناقصة إلاّ بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول البدائيين وقبائل الجاهلية. فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية.

فالعقيدة في نظر العقاد هي إنتاج بشري وليست وحياً سماوياً، تطوّرت إلى الوحدانية بمرور الأزمان كما تطوّرت باقي العلوم! فهل فعلاً تُرك أمرُ العقيدة للإنسان؟ لتشكيلها حسب تطوّره المعرفي لتبدأ بالمحسوس ثم تأخذ طريقها في التطور حتى تصل إلى قمة التجريد كما يذكر الدكتور محمد شحرور: "لقد خضع التوحيد للتطور المعرفي، فتطور من المشخص إلى المجرد، ومن التعددية إلى الوحدانية، فنرى في هذا المستوى مختلف الدرجات الموجودة موضوعياً، من وثنية طبيعية (ظواهر الطبيعة والنجوم والكواكب) إلى وثنية صنمية، إلى وثنية أسلاف وأولياء تتجسد بزيارة الأضرحة والقبور. ونلاحظ في هذا التدرج ارتفاع المستوى، حيث نرى في كل درجة بقايا من الدرجة التي سبقتها"[(١)].

إنّ إخضاع العقيدة لعملية التطور المعرفي بهذه الطريقة يعني أنّها مرت بمراحل من التطور طبيعية كان لابدّ من أن تمرّ بها، وهذا يجعل من الآيات القرآنية التي تتعرض بالنقد والتسفيه لعقائد الأقوام السابقين الباطلة لا معنى لها! لأنها تطالب بخلاف مقتضى طبيعة الإنسان! فعبادة الأصنام مثلاً- حسب الرأي السابق- يُفترض أنّها مرحلةٌ طبيعيةٌ مرت بها البشرية في طريق تعرّفها على الله سبحانه، بينما يرفض القرآن الكريم هذا المنطق، ويعتبر عبادتهم للأصنام انحرافاً من أولئك الأقوام عن جادة التوحيد فيقول: (**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً* وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً* وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً* وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً**)(نوح:٢١-٢٤)، هذا في الألف الرابع قبل الميلاد، وعن إبراهيم(ع) يقول: (**وَاتْلُ**

(١) - محمد شحرور، **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**- فقه المرأة، ص٤٤.

عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ* قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)(الشعراء:٦٩-٧٧)، فكيف يصحّ بعد ذلك أن نعتبر الوثنية جزءً طبيعياً ضمن سياق رحلة التوحيد الطويلة؟!

بل ذهب بعض الباحثين الغربيين في تحليله لظاهرة التدين إلى أبعد من ذلك، حين تخيل أنّ الإنسان إنّما تعلّم تدبير أمور حياته من الحيوان! وأنّ نشوء الشعور الديني يرجع الفضل فيه إلى ذاك الشعور الغريزي بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ما هو مجهول، فكان ذلك سبباً دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التي تؤثر في حياته دون أن يتعرّف كنهها! ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أنّ هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه! والأغرب من ذلك أن يُرجع الفضل في تعليم هذا الإنسان المكرّم إلى الحيوان حتى على مستوى غرائزه![1].

هذه طبعاً محاولات مادية لتفسير نشوء العقيدة والأديان بعيداً عن الطرح الديني السماوي الذي يصرّح بأنّ الإنسان خُلق برعاية ربّانية خاصة، وفطر على الإيمان منذ بداية خلقه.

فالقول بأن الإنسان استمد صفاته من الحيوان يزري بقيمة الإنسان المكرّم الذي علّمه الله البيان، وفطره على الإيمان فكان - منذ كان- ناطقاً عاقلاً مؤمناً بالله الواحد الأحد، فأصل الإيمان موجود فيه وإنّما تدرّج في سلم المعرفة بعد أن أُهبط من الجنة إلى الأرض بسبب المعصية ليبدأ صعود السلم من بدايته بعد أن كان في قمته.

إنّنا هنا يجب أن نفرق بين أحاسيس الخوف من المجهول والأخطار النابعة من تركيبة الكائن الغرائزية النفسية سواء كان هذا الكائن حيواناً أم إنساناً وبين حالات الخوف والرجاء التي تصيب الإنسان تحديداً نتيجة تركيبته الإيمانية الفطرية، فهو يحمل بين جنبيه جهازاً يمكّنه من الاتصال بالملأ الأعلى إنْ هو أراد، وهو الروح التي

---

[1] - أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص١٩.

بها أصبح إنساناً مُخاطباً ومُكلّفاً ولم يكنْ كذلك من قبل، فهو لمّا كان مفطوراً على الإيمان باللّه فلابد أن يظهر ذلك على سلوكياته، إنْ لم يكنْ ذلك في أوقات الراحة والرخاء ففي أوقات الشدة والبلاء حيث لا ملجأ من اللّه إلا إليه، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تؤكّد هذا المعنى: (**وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**)(الروم:٣٣)، (**وَإِذَا مَسَّ الْأَنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِه**...)(الزمر:٨)، (**فَإِذَا مَسَّ الْأَنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) (الزمر:٤٩). إنّ تعلّق القلب بقوة قاهرة قادرة على إنقاذه عند انعدام سبل النجاة لدليلٌ واضح على ما غُرس فيه من إيمان بهذه القوة مهما كانت تسميتها لديه، فليس المهم هنا تسميتها بل أثرها عليه، وهي أدنى المعرفة وإن كان المطلوب من الإنسان السعي لطلب المزيد من المعرفة بهذه القوة المهيمنة ليتسنى له مخاطبتها بما يليق بها من الأسماء (**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**)(الأعراف:١٨٠).

وهذا نفسه ما ذكّر به الإمامُ الصادق (ع) ذلك الرجل حينما جاءه سائلاً: "**يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كُسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلّصك من ورطتك؟ فقال: نعم، قال الإمام الصادق(ع): فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث**"[1]. وهو عينه ما احتجت به الآية على المشركين في قوله تعالى: (**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**)(العنكبوت:٦٥) فهم في الشدة لا يجدون إلا اللّه فيلجأون إليه داعين مخلصين، ثم إذا كشف عنهم البلاء يشركون به.

---

[1] – الصدوق، **التوحيد**، ص٢٣١.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد من التفريق بين الاعتقاد بالله الواحد الأحد وبين درجات ومستويات المعرفة به سبحانه المعتمدة أساساً على قدرات الإنسان العقلية وإمكانياته التجريدية حيث تكون معرفته بالله في مرحلة نضوجه العقلي في مراحله اللاحقة أوسع وأعمق، وهذا لا يعني وجود نقصٍ ما في عقيدته الفطرية الإيمانية في بدايتها ثم تكاملت بعد ذلك، وإنّما النقص في القدرة على استيعابها كاملة نتيجة عدم التفعيل الكامل لطاقات العقل في البداية بغض النظر عن الأسباب[1] ولذلك لمّا قام نفر من الناس هم الأنبياء والرسل باستغلال كامل طاقاتهم العقلية سمت نفوسهم، فصاروا محال معرفة الله وأمناء وحيه وأهلاً لحمل رسالته إلى خلقه، فالعقل هو الوسيلة لمعرفة الله سبحانه منذ أن وُجد الإنسان على هذه الأرض وحتى يومنا هذا الذي شهد تطورا مذهلا في جانبه المادي صاحَبَه افتقارٌ شديدٌ في جانبه الروحي جعل الإنسان بعيداً عن السماء (**وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**)(سبأ :٥٢)، رُوي عن الصادق (ع) قوله: "**إنّ الثواب على قدر العقل، إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر ظاهرة الماء، وإنّ ملكاً من الملائكة مرّ به فقال: يا ربّ أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك، فاستقله الملك، فأوحى الله إليه: أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي فقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك فلما أصبح قال له الملك: إنّ مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة، فقال له العابد: إنّ لمكاننا هذا عيبا، فقال له: ما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع فإنّ هذا الحشيش يضيع! فأوحى الله إلى الملك: إنما أثيبه على قدر عقله**"[2]. إنّ نصيب كل فرد من المعرفة بالله هو بمقدار تثويره لدفائن عقله- وهذا ما جاءت من أجله

---

[1]- والحق أنّ الإنسان كان في بدايته أعرف بالسماء والإيمان منه بعد تطاول الزمان عليه، لأنه كان يعرف ربه بروحه وإيمانه معرفة مباشرة، لا عن طريق العقل والاستدلال، ولكنه بعدما ضعفت فيه الصلة الروحية واعتمد على العقل والتفكير صارت معرفته متدرجة ونامية بعدما كانت كشفاً متكاملا.

[2] - الكليني، **الكافي**، ج١، ص١٢.

الأنبياء والرسل- حتى يصل الإنسان بعد مشوار طويل من الكدح والعناء إلى مرحلة اليقين بربه (**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**)(الحجر:٩٩).

وقد التبس الأمر على الأستاذ العقاد حين ساوى بين العقيدة وباقي العلوم والصناعات من حيث الابتداء، وفاته أن العقيدة في الإنسان فطرية بينما العلوم كسبية، يقول الله سبحانه: (**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)(النحل:٧٨)، ولم يقل مثل ذلك في شأن العقيدة، بل قيل ما يفيد عكسه تماماً، في القرآن (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**)(الروم:٣٠)، وعلى لسان الرسول(ص): (**كل مولود يولد على الفطرة**)[١]، وما الدعوة إلى النظر والتفكّر في الآيات وفي الأنفس وتحصيل العلم إلا لترسيخ هذه الفطرة وتعميق الإيمان بالله سبحانه، فإنّ العلم والإيمان إذا اجتمعا في المرء رفعاه (**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)(المجادلة:١١).

ثم إن افتراض التدرج في العقيدة من التعدد إلى الوحدانية قائم على فرضية أن الإنسان بدأ حياته بلا عقيدة كما بدأها بلا علم ثم تعلّم، وببطلان هذه الفرضية تسقط، بل- الأصح- تنقلب لتصبح البداية بالتوحيد ثم التدرج شيئاً فشيئاً نحو الشرك نتيجة لطول الأمد وقسوة القلوب، فتكون الحاجة حينئذ لإرسال الرسل والنبيين مذكّرين ومبشرين ومنذرين، والتذكير لا يكون إلا بشيء منسي سابق وجوده على لحظة التذكير.

والغريب أن يفطن إلى تلك الحقيقة بعض المؤرخين الغربيين، بينما تغيب عن أكثر الدارسين لتاريخ الديانات ممن قرأوا القرآن وآمنوا به، يقول عمانويل دي روجيه: "من المستحيل عملياً أن ينبثق الإيمان بعدة آلهة وعبادتها إلا من خلال فساد ديانة أكثر نقاء.."[٢].

---

[١] - الصدوق، **التوحيد**، ص٣٣٠؛ مالك، **الموطأ**، ج١، ص٢٤١.

[٢] - إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** - الوحدانية والتعدد، ص٢٩٤.

أوّلاً- الإنسان خليفةً

إنّ الجهل بالحقائق المتعلقة بخلق الإنسان الأول جعل الباب مفتوحاً على مصراعيه للباحثين للإدلاء بدلوهم وطرح نظرياتهم التي تفسر كيفية ظهور هذا الكائن العاقل وكيفية تطوّره إلى ما هو عليه الآن، فمن جهة لم يفرّق الباحثون الماديون بين مرحلة البشرية التي عاشها هذا الكائن والمرحلة الإنسانية التي أعقبتها، ولم ينظروا إلى هذه النقلة النوعية إلا في سياق ما تطرحه نظرية التطور (النشوء والارتقاء)، ومن جهة أخرى يرى أكثر الباحثين المسلمين أنّ خلق الإنسان تمّ بنفخ الروح في قالبه الطيني المعدّ مسبقاً لهذا الغرض حيث لم يسبق لهذا الكائن - حسب رأيهم- وجودٌ (بيولوجي- فيزيولوجي) حيّ.

بينما يقرّر القرآن أنّ المشروع الإنساني على الأرض بدأ بقرار ربّاني: (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**)(البقرة:٣٠)، ويُستفاد من ردّ الملائكة: (**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**)(البقرة:٣٠) الإشارة إلى وجود بشري سابق[1] وأُوكلت مهمةُ تنفيذ هذا القرار إلى سادة الملائكة المدبّرين، الذين يتلقّون الأمر الإلهي لتنفيذه فهم (**لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**)(التحريم:٦)، إذْ لا يُتصوّر أنّ الله العليّ القدير الذي (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**)(الشورى:١١)، أن يباشر هو سبحانه وتعالى التنفيذ بنفسه، فهو (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) (يّس:٨٢).

فكانت مهمة سادة الملائكة تنفيذ هذا المشروع والعمل على إنجاحه، ولا يزالون هم كذلك دون كلل أو فتور منذ ذلك الحين، ومنذ أن خُلق الإنسان الأول (آدم) الذي نُفخ فيه من الروح، أُودع الفطرة.. (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**)(الروم:٣٠)، وهي فطرة التوحيد كما تؤكده الأحاديث الواردة في معنى الفطرة، **قال رسول الله (ص): (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه، فذلك قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**

---

[1] - انظر بحث: **الخلق الأول** - كما بدأكم تعودون، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)(لقمان:٢٥)[١] وسُئل الإمام الصادق(ع) عن قول الله عز وجل: "**(فطرة الله التي فطر الناس عليها) قال: فطرهم جميعا على التوحيد**"،[٢] كما يذكر ابن كثير في تفسيره عن رسول الله (ص) قوله: "**يقول الله عزّ وجلّ إني خلقت عبادي حنفاء**[٣] **فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**"[٤]. وقد أورد الطبراني هذا الحديث "**أن رسول الله(ص) قال يوماً: ألا أحدثكم ما حدثني الله عزّ وجلّ به في الكتاب؟ إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين..**"[٥].

وقد تضمن هذا المشروع الأمر للملائكة بالسجود لهذا الإنسان، وجُعلوا في خدمته لتعهّده ورعايته وتعليمه، فآدم هو الموحّد الأول على وجه الأرض ابتدأ مسيرة التوحيد متسلّحاً بالفطرة من جهة، وبالوعد الإلهي له بالتسديد - بعد أن أُهبط- من جهة أخرى: (**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(البقرة:٣٨).

كانت هذه الكلمات بمثابة إعلان التوبة من الله على آدم الإنسان الأول، حيث اجتباه وهداه إلى الصراط المستقيم ليبدأ مشوار الحياة الإنسانية الصاعد (**يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**)(الانشقاق:٦).. بعد أن استوعب الدرس الأول في مدرسة الحياة عارفاً عدوَّه.. متعرِّفاً على نفسه (**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**) (طه:١٢٣).

هكذا بدأت حياة الإنسان على هذه الأرض بالتوحيد لله الواحد الأحد.. بدأت بالأمّة الفرد (آدم)، واستمرت وهي في طور انطلاقتها مدة مديدة من الزمن يرث

---

[١]- الصدوق، **التوحيد**، ص٣٣١.

[٢]- الصدوق، **التوحيد**، ص٣٢٩.

[٣]- الحنف: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة. والحنيف هو المائل إلى ذلك. الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٢٦٠.

[٤] - ابن كثير، **التفسير**، ج٤، ص٥٥١.

[٥] - الطبراني، **المعجم الكبير**، ج١٧، ص٣٦٣.

الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد عقيدة التوحيد حتى تطوّرت لتصبح الأمّة الناس بعد أن برزت معالمها في بعدها الاجتماعي والجغرافي حين تحولت من حياة الكهوف والتقاط الثمر، إلى استيناس الحيوانات وتدجينها بالرعي، ومن الرعي إلى حياة الاستقرار والزراعة لتنطلق منها في بناء الحضارة الإنسانية، وكانت الأمّة خلال هذه المدة الطويلة أمّةً واحدة أي على عقيدة واحدة (**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً** - مجتمعين على التوحيد بتعليمٍ وتعهّد ربّاني - **فَاخْتَلَفُوا** - بعد ما ضعفت فيهم عقيدة التوحيد - **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)(يونس:١٩)، فالأمّة هنا بمعنى الدين[1] (أي التجمّع على وجهة واحدة (فكريّة/اعتقاديّة/سلوكيّة)، وعكسها الاختلاف في الاتّجاهات والتفرّق كما قالته الآية)، وهو نفس المعنى في قوله تعالى: (**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**)(الزخرف:٢٢)، ويؤكّد هذا المعنى سياق الآيات في سورة يونس، ففي الآية السابقة يقول تعالى: (**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)(يونس:١٨)، وفي الآيات اللاحقة يورد مطالبتهم بنزول آية على النبي(ص) من ربه مكابرةً وعنادا، فيذكّرهم الله سبحانه بما غُرس في فطرتهم من بذرة الإيمان التي تظهر جليةً حين الشدة حيث لا منجي إلا الله (**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**)(يونس:٢٢).

يقول أحد المفسرين للآية (**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً**): "..، **ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أمّة واحدة كونهم على دين واحد وهو دين**

---

[1]-"وأمّا الهمزة والميم فأصلٌ واحدٌ، يتفرّع منه أربع أبواب، وهي الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين"، قال الخليل: الأمَّة: الدِّين، قال الله تعالى: (**إنّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**)(الزخرف:٢٢). وحكى أبو زيدٍ: لا أمَّة له، أي لا دينَ له. ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج١، ص٥٤، ٥٦.

التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحّد ومشرك"[1]، فقد اقتضت مشيئة اللّه أن يترك الخيار للإنسان (**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**) (الكهف:٢٩)، وما كان اللّه ليُكرهه على التوحيد (**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**)(هود:١١٨) فذلك مقتضى الحرّية التي أُعطيت للآدميّ، ولكن اقتضت رحمته ووعده من جهة أخرى تدخله سبحانه لتعليم الإنسان وإرجاعه كلّما انحرفت عقيدة التوحيد أو خبت، كما وعد سبحانه بقوله: (**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(البقرة:٣٨).

ثانياً- الملائكة رُسُلاً

واستمر المشروع الإلهي في توجيه الإنسان وهدايته برعاية ربانية وبأفضل الطرق المناسبة له واختير لهذا الإنسان من الأساليب الكثيرة التي تضمن وصول الهداية إليه وإقامة الحجة عليه حسب مستواه المعرفي، من هذه الأساليب أنْ بعث اللّه إليه غراباً يبحث في الأرض ليريَه كيف يواري سوأة أخيه المقتول، ومنها أنْ أرسل إليه ملائكة (هاروت وماروت) يعلّمانه (**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَد حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ**)(البقرة:١٠٢)، وقد كان للملائكة الدور الأكبر في هداية الإنسان في مراحله الأولى، فقد اعتاد الناس فكرة نزول الملائكة متمثّلين بشراً للتعليم، لدرجة استنكارهم أن يأتي إليهم رسولٌ من البشر (**فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِه مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**)(المؤمنون:٢٤)، هكذا كان قول الملأ الذين كفروا من قوم نوح (ع)، ومن بعدهم قوم عاد وثمود (**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**، فماذا كان ردّهم؟ **قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**)(فصلت:١٤)، إذْ أنّهم لا يتصورون أن يكون الرسول بشراً مثلهم، ولعلّهم كانوا يعلمون من أعمال الملائكة الخارقة ما دعاهم أن يطالبوا الرسل من البشر بمثل تلك الأعمال (**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ**

---

[1] - الطباطبائي، **تفسير الميزان**، ج١١، ص٣٢.

جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)(الإسراء:٩٠-٩٣).

وبتتابع مجيء الرسل من البشر وتقلّص الدور المباشر للملائكة واقتصار حضورهم وهم على صورة البشر مع بعض الرسل لأداء مهمات معينة، كالحال في ضيف إبراهيم المكرمين الذين بشّروه بإسحاق (**وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**)(الحجر:٥١-٥٣)، وذهابهم بعد ذلك إلى لوط (ع) لإنزال العذاب بقومه المسرفين (**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**)(هود:٨١)، وكذلك تمثّل الملك للصدّيقة مريم بشراً (**فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**) (مريم:١٧)، مع هذا الانسحاب التدريجي بدأت تخفت صورة الملائكة كحلقة اتصال بين السماء والأرض وكمعلّمين لتحلّ محلها صورة الرسول البشري، فكان سقف مطالبة الأقوام اللاحقين من رسلهم أن يكون معهم ملائكة كعلامة على صدقهم، فهذا فرعون موسى ينادي في قومه: (**فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**)(الزخرف:٥٣)، ثم بعد ذلك لينخفض هذا السقف إلى المطالبة ولو بملَك واحد ليكون مع الرسول محمد (ص): (**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**)(الفرقان:٧)، (**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**)(هود:١٢).

وهكذا تدريجيا أصبحت حلقة الاتصال مقتصرةً على الجنس البشري الإنساني كالأنبياء والرسل والمؤمنين الصالحين والقادرين على تمثيل الملأ الأعلى واستيعاب مهام الاستخلاف في الأرض، بعد أن ارتقت قدرات الإنسان التفكيرية وقابلياته التجريدية فأصبح مهيّأً وقادراً- إن شاء- على حمل آخر الرسالات السماوية.

أ- طرق اتصال الملائكة بالبشر

قد لا نحيط علماً بأساليب اتصال الملائكة بالإنسان، ولكن يمكن الإشارة إلى ثلاثة منها، هي:

١- الاتصال المتمثّل، وذلك حينما تكون الملائكة على هيئة البشر عند التواصل مع الإنسان (**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**)(مريم: ١٧)، فيكون التواصل بين الطرفين كأي تواصل بين اثنين من الناس تعليماً وحواراً، وقد كان اتصال الملائكة أساساً مع الأنبياء(ع) باعتبارهم المعلّمين والمربّين للناس،[1] ولكن ذلك لا يمنع مخاطبة الملائكة غير الأنبياء ومحاورتهم كما كان الحال مع الملكين ببابل هاروت وماروت، وكما حدث مع مريم الصدّيقة ومع سارة زوج إبراهيم (ع) (**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ* قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**)(هود :٧١-٧٣).

٢- الاتصال عن طريق الوحي، وذلك حينما يكون الملك على هيئته الحقيقية، ويتم الاتصال في هذه الحالة عن طريق الدخول على قلب النبي (**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**) (الشعراء:١٩٢-١٩٤)، وقد كان يصاحب هذا النوع من الاتصال أعراضٌ واضحة يلحظها المسلمون على الرسول(ص)، وهي الحالة التي عُرفت بالغشية التي تصيب النبي(ص) حين نزول الوحي عليه فيتفصّد لها جبينُه عرقاً.

ونعتقد أنّ هذا النوع من الاتصال بدأ مع نوح (ع) لقوله تعالى: (**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**

---

[1]- يقول الإمام علي (ع) في خطبة له تُسمى القاصعة عن الرسول(ص): "ولقد قرن الله به -صلى الله عليه وآله- من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره" الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٥٧. وهذا ما عناه (ص) بقوله: (أدّبني ربي فأحسن تأديبي)، فلابد أن يكون هذا التأديب قد تم بواسطة هذا الملك.

كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً)(النساء:١٦٣)، ولهذا كانت حجّة قومه في الردّ عليه أنّهم لم يسمعوا بهذا النوع من الاتصال من قبل فقالوا: (**مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**)(المؤمنون:٢٤)، وغنيٌ عن الذكر أنّ طريقة الاتصال بالوحي لم تُنه طريقة الاتصال المتمثّل بين الملائكة والأنبياء والتي ظلت باقيةً حتى آخرهم محمد(ص)[١].

٣- الاتصال عن طريق الإلهام وهو يشمل غير الأنبياء أيضاً من المؤهلين لتلقيه، وهو حالة نفسيّة مفاجئة تأخذ بمشاعر وأحاسيس قلب المُلْهَم، والحقيقة إنّه سيلٌ روحاني يُوقف المجرى العادي للرأي والشعور ويُغيّر من الاتجاه العادي للتّأمّل والتّفكّر، ويكشف عن انعدام التناسب بين ما كان المُلْهَم يُفكّر فيه وما انكشف له فُجأةً. والمُلْهَم كلّما قرُب من الله سبحانه وتعالى كان إلهامُه كشْفاً من الكشوف العرفانيّة، وقد قيل في الفرق بينه وبين إلقاء الشيطان ووسوسته: أنّ ما أثمر إقبالاً على الله وإنابةً إليه وذكراً له وهمةً صاعدةً إليه، وأورث أُنساً ونوراً في القلب وانشراحاً في الصدر وسكينةً وطمأنينةً فهو من الملك، وما أثمر وأورث ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان[٢].

ب- أدوار أخرى للملائكة

لقد كان ولا يزال جُلّ دور الملائكة يتمثل في الوقوف إلى جانب الإنسان ومساعدته في ترسّم مسيرته الإيمانية نحو الله سبحانه، فهم يلعبون دور قوات الدعم اللوجستي التربوي في معركة الإنسان مع الشيطان الرجيم وجنوده من الجن والإنس

---

[١] - رُوي أنّ النبي (ص) أتاه جبرئيل في صورة دحية الكلبي غير مرة.

[٢] - ابن قيم الجوزية، **الروح**، ص٣٤٦.

على صعيد خط المواجهة الأول (النفس)، وأيضا على صعيد خط المواجهة الثاني (العدو الخارجي)، فربما يتطلب الأمر التدخل أحياناً بشكل غير مباشر لترجيح كفة المؤمنين على أعدائهم في المنعطفات المصيرية، لذا لم يقتصرْ دور الملائكة على تعليم الإنسان وتربيته فقط بل شمل جوانب أخرى منها:

١- حفظ الإنسان من كثير من الأخطار المودية بحياته إلى أنْ يحينَ أجلُه، قال تعالى: (**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**) (الرعد:١١)، وقال أيضا: (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**)(الأنعام:٦١).

٢- تثبيت المؤمنين في ساحات القتال، وشدّ أزرهم ضد أعدائهم كما حدث في معركة بدر المصيرية، فقبل المعركة طمأن الله سبحانه المؤمنين بقوله: (**أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ**)(آل عمران: ١٢٤)، ووعدهم بالمزيد من المدد إنْ هم ثبتوا في المواجهة (**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**) (آل عمران: ١٢٥)، وهكذا تمت تعبئة المؤمنين نفسياً للمعركة قبل وقوعها ليدخلوها بأقدامٍ ثابتة وقلوبٍ مطمئنة بنصر الله، واستمر الدعم بعد ذلك حين تقابل الجيشان ورأى المسلمون أنّ المشركين يفوقونهم عدداً وعدة فاستغاثوا ربّهم (**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**)(الأنفال:٩)، ليتجاوز دور الملائكة بعد ذلك حد الدعم المعنوي إلى المشاركة غير المباشرة في القتال عن طريق تسديد ضربات المؤمنين لتُصيب الأعداء في مقاتلهم (**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**)(الأنفال:١٢)، ولعلّ هذا ما عنته الآية (١٧) من نفس السورة (**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)(الأنفال:١٧)، وكان لا بدّ من هذا الدعم القوي لحسم المعركة لصالح المؤمنين لأهداف استراتيجية عبّر عنها الرسول(ص) في ذلك اليوم

حين استقبل القبلة ودعا ربه قائلاً: (**اللّهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللّهم إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**)[1].

٣- إنزال العذاب بالمستحقين له من الأقوام الظالمين بعد تنجية المؤمنين كما هو واضح فيما حدث لقوم لوط(ع): (**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ❖ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ❖ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ❖ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**)(العنكبوت:٣١-٣٤).

٤- توفّي الأنفس، قال تعالى: (**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) (السجدة:١١)، وقال أيضا: (**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**)(الأنعام:٦١).

٥- مراقبة الإنسان في أعماله وكتابتها له أو عليه ضمن عملية متابعة دقيقة ولصيقة لا تغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصتها (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ❖ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ❖ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**) (قّ:١٦-١٨)، (**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**)(الزخرف:٨٠).

ثالثاً- دور الأنبياء والرسل

بعث الله سبحانه الأنبياء والرسل للقيام بمهمة التذكير وإرجاع الناس إلى خط التوحيد كلما حادوا عنه (**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا**

---

[1] - الطبري، **التاريخ**، ج٢، ص١٤٩.

الطَّاغُوتَ)(النحل:٣٦). فجاء آدم الرسول.. وشيث.. وإدريس.. ونوح (عليهم السلام)، وآخرون ذكرهم القرآن الكريم والكثير منهم لمْ يذكرْهم (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**)(غافر:٧٨)، وتذكر الروايات أنّ عدد الأنبياء يصل إلى مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، وقد كان ابتداء بعثهم في مرحلة ما بعد الأمّة الواحدة حين اجتالت الشياطين بني آدم وحرفتهم عن التوحيد، تجد ذلك واضحا جليّا في كلام للإمام علي(ع) في خطبته الأولى في نهج البلاغة يتحدث فيها عن خلق آدم وبعث الرسل فيقول: " .... **ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلته، وحذّره إبليس وعداوته، فاغترّه عدوه نفاسة عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجذل وجلا، وبالاغترار ندما. ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المردّ إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية.**

واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول... ...."[(١)]

فالناس ظلوا ردحاً من الزمن على الإيمان بالتوحيد أمّة واحدة إلى أن بدّل أكثرُ الخلقِ عهد الله إليهم، وأشركوا به فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فالتوحيد هو القاعدة والشرك والوثنية هما الاستثناء الذي استدعى بعث الأنبياء والرسل. (**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**)(البقرة:٢١٣)، يقول السيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن): "فقد هبط آدم إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه، وما من شك أنه علّم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى" ويقول أيضاً: " ... وأن الذي يقرره الله – سبحانه – أن آدم وهو أول البشر(!) عرف حقيقة التوحيد كاملة،

---

(١) – الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، ج١، ص٢٢، ٢٣.

وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده. وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا، وإلا التوحيد عقيدة، وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد .. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة"،[1] ولهذا كانت مهمة الأنبياء والرسل قائمةً أساسا على الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، وكانت أولى كلماتهم إلى أقوامهم هي: (**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**)، يقول الله سبحانه عن نوح (ع): (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)(الأعراف:٥٩)، وعن هود (ع): (**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ**)(الأعراف:٦٥)، وعن صالح (ع): (**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**)(هود:٦١)، وعن شعيب (ع): (**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ**)(هود:٨٤)، وعن جميع الرسل: (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**)(الأنبياء:٢٥).

فالإنسان إذن كان، ولايزال، مشروعاً ابتدأ بتدخلٍ رباني مقصود، فُطر على التوحيد وزُوّد بطاقة العقل الجبّارة ووُظّف لرعايته وهدايته الملائكة والأنبياء والرسل ينيرون له الطريق إلى معرفة الله سبحانه وعبادته، حمايةً له من تأثيرات مشروع الإضلال الشيطاني الذي استطاع أن يضل جبِّلا كثيرا من الناس، ولكنه ظلّ عاجزاً عن إفشال المشروع الرباني برمته، وظلّ خط التوحيد متواصلاً في هذه الأمّة منذ آدم وحتى يومنا هذا.

---

[1] - سيد قطب، في **ظلال القرآن**، سورة هود.

الفصل الثاني

موحّدون عبر التاريخ

إنّ التوحيد الذي بزغ منذ بداية يوم الإنسانية سيبقى يُرسل أشعته حتى نهاية ذلك اليوم وإنْ حجبته بعضُ سحبٍ من الشرك خفيفة زمناً ما ذهبتْ ببعض نوره.. أو كثيفةٍ في زمن آخر حجبت نورَه عن كثير من النفوس إلا أنه ظلّ زاهراً في نفوس قوم آخرين، فالأرض لم يأت عليها زمان قط خلت فيه من حجةٍ على الناس متمثلةٍ في أشخاص موحّدين يمشون على الأرض كان أولهم آدم وليس آخرهم خاتم النبيين محمد (ص) وما بينهما الكثير من الرسل والأنبياء نعرف البعض منهم ولا نعرف أكثرهم (**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**)(النساء:١٦٥).

يقول الإمام علي(ع): "**لم يُخلِ اللهُ سبحانه خلقَه من نبيٍّ مرسل، أو كتابٍ مُنزل، أو حُجّة لازمة، أو محجّة قائمة... رسلٌ لا تُقصّر بهم قلةُ عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابقٍ سُمِّي له مَنْ بعده، أو غابرٍ عرّفه مَنْ قبله على ذلك نَسَلت القرون، ومضت الدهور، وسَلَفت الآباء، وخَلَفت الأبناء**"[1].

فلابد من وجود نماذج مؤمنة وموحِّدة طوال التاريخ الإنساني، يحتج الله سبحانه بهم على خلقه لتكون له الحجة البالغة، ولا يمكن أن يخلو زمانٌ من هؤلاء المؤمنين قلّوا أو كثروا، ظاهرين كانوا ومعروفين أم مغيبين ومقهورين إلا أن وجودهم يمثّل استمراراً لخط التوحيد الذي قد يضيق ليقتصر على أفراد معينين يمثلون الأمة الموحِّدة في زمنٍ ما، وقد يتسع في زمان آخر ليشمل الأمّة كلها ولكنه لا ينقطع أبداً.

ولسائل أن يسأل: من أين كانت انطلاقة عقيدة التوحيد؟.. أين هي البقعة الجغرافية التي منها انتشرت تلك العقيدة إلى العالم؟

[1] - الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، ج١، ص٢٤.

وللإجابة عن هذا السؤال المهم، علينا الرجوع إلى الوراء كثيراً حيث نقطة البداية، حيث الجنة الأرضية التي أُسكنَها آدمُ وزوجُه، ثم أُهبط منها آدم بعد معصيته ليستقرّ بالقرب منها رغبة في الأوبة إلى الله عزّ وجلّ وطلباً للمغفرة، فمن هذه المنطقة تحديداً كانت البداية، ولكن الجهل بحقائق التاريخ والجغرافيا سواء نجم ذلك عن تقصير أو قصور في الفهم أو تحريف للحقائق بقصد أو بغير قصد ساهم في رسم الصورة غير الصحيحة لما جرى عبر التاريخ منذ آدم الإنسان الأول وحتى يومنا هذا، وما دعوة القرآن الكريم لنا للسير في الأرض للنظر فيما آل إليه أمرُ السابقين من المكذبين والمجرمين إلا لإعادة رسم الصورة الصحيحة لما جرى في الحقب الماضية واستخلاص العبرة منها (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(الأنعام:١١)، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)(النمل:٦٩)، بل يذهب التوجيه الإلهي لنا أبعد من ذلك حين يطالبنا بالسير في الأرض لمعرفة كيف بدأ الخلق، وهذا ضمن الوُسع وإلا لما كُلّفنا به (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(العنكبوت:٢٠).

فالبداية إذاً كانت من (**أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**)(آل عمران: ٩٦)، من هذه الأرض المقدسة التي باركها الله سبحانه، أرض شبه الجزيرة العربية التي انطلق منها الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين وداعين إلى عبادة الله الواحد الأحد، ومنها حمل الإنسان العربي عقيدة التوحيد إلى جميع أنحاء الوطن العربي الواسع منذ آلاف السنين، لا كما صوّره أعداء هذه الأمّة من أنّ العرب كانوا مجموعة من البدو الرحّل سكنوا الجزيرة العربية قبل البعثة النبويّة، وكانوا جهلة ووثنيين يعبدون الأصنام، متناسين وجودهم قبل ذلك وجغرافيتهم الواسعة التي شملت العراق وسوريا ووادي النيل، وتاريخهم الموغل في القدم الذي مثّله السريانيون (كالسومريين والبابليين)، والفينيقيون.

أولاً- الحنفاء

لقد كان العرب في شبه الجزيرة العربية يمثلون مركز الأمّة العربية الواسعة، وكانوا قبل البعثة النبويّة يدينون بالحنيفيّة الإبراهيميّة، فقد كانوا يعظّمون البيت الحرام ويحجون إليه من كل جهة، وذلك قبل أن يتولى أمر البيت عمرو بن لحي كبير خزاعة يومئذ، فكان هو أول من وضع الأصنام على الكعبة ودعا الناس إلى عبادتها، وأول صنم وضعه عليها هو "هبل" الذي حمله معه من الشام إلى مكة ووضعه عليها، ثم أتبعه بغيره حتى كثرت وشاعت عبادتها بينهم.

وقد أنكر (شحنة بن خلف الجرهمي) عليه فعله هذا فخاطبه قائلاً:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة   شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت ربّ واحد أبداً   فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفن بأنّ الله في مهلٍ   سيصطفي دونكم للبيت حجابا[1]

فرغم وجود عبادة الأصنام في مكة إلا أنّها لم تخلُ من الموحّدين الذين آمنوا بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، معلنين رفضهم الصريح لعبادتها، داعين لعبادة التوحيد في أشعارهم وخطبهم، كما هو واضح من قول "قس بن ساعدة الإيادي":

كلا بل هو الله إله واحد   ليس بمولود ولا والد

إنّ وجود "كلا" الرادعة، و"بل" المُضربة، تُبيّن أنّ الرجل لا أنّه كان يُقرّ ويُخبر بعقيدة التوحيد في أدقّ تفاصيلها عن الإله الواحد العليّ فحسب، وإنّما هو حينها يرفض الانحراف المتاخم لزمانه ويدعو للإضراب عن مظاهر الشرك المنتشرة.

"كان قسّ بن ساعدة يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العُكوف على الأوثان ويُرشدهم إلى عبادة الخالق. ومن خُطَبه خطبته تلك التي خطبها في سوق عُكاظ وهي: أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليلٌ داج ونهارٌ ساج وسماءٌ ذات أبراج، ونجوم تَزهر، وبحار

---

[1] - المسعودي، **مروج الذهب**، ص١٩٢.

تَزْخر وجبال مُرساة، وأرض مُدحاة، وأنهار مُجراة، إنّ في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبَرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرَضُوا فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قُسٌ بالَلّه قسماً لا إثم فيه إنّ للّه ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرا"[١].

وقد رُوي أنّ النبيّ(ص) سمعه في عكاظ فأثنى عليه، وقال فيه: "**رحم الله قسّاً، إني لأرجو يوم القيامة أن يُبعث أمّةً وحده**"[٢].

وكذلك كان الشاعر العربي المعروف زهير بن أبي سُلمى ممن عاصر هذه المرحلة التاريخية ومات قبل البعثة بسنة، "وكان سيداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع مُتديّناً مؤمناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتَم الله يعلم

يُؤخّر فيُوضع في كتاب فيُدّخر ليوم الحساب أو يُعَجّل فيُنقم"[٣]

وفي مروج الذهب ذكر المسعودي في هذا الصدد يقول:

"وقد كان بين المسيح ومحمد صلى اللّه عليهما وسلم في الفترة جماعَة من أهل التوحيد، ممن يُقر بالبعث، وقد اختلف الناس فيهم: فمن الناس من رأى أنهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك"[٤].

والأصح أنّهم الحنفاء أي بقايا تابعي دين النبي إبراهيم(ع) الذي عاش في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وهم جماعة من العرب لم يكونوا على دين قومهم الوثني، وكذلك لم يكونوا يهودا ولا نصارى وإنّما اعتقدوا بوحدانية اللّه على غرار ما وضحته البعثة المحمدية، وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود أولي بقية ينهون عن الفساد في

---

[١]- أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، ج٢، ص٢٣٨، ٢٣٩.

[٢]- أحمد حسن الزيات، **تاريخ الأدب العربي**، ص٢٠.

[٣]- أحمد بن إبراهيم الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، ص٢٥٠.

[٤] – المسعودي، **مروج الذهب**، ص٢١.

الأرض طوال القرون الماضية وإن كانت قليلة في قوله تعالى: (**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**)(هود :١١٦).

وخط التوحيد الذي لم ينقطع يثبته - بالإضافة إلى القرآن الكريم - الصحيحُ ممّا في كتب الديانات الأخرى: "يقول الكتاب المقدس إن البشر ارتدّوا عن الله الحي وعبدوا آلهة متعددة، مما حدا بالأنبياء إلى بذل المحاولات لإرجاع الناس إلى عبادة الإله الواحد. أما العلماء الملحدون فزعموا أن الإنسان منذ البداية يعتقد بتعدد الآلهة. وبقيت هذه النظرية سائدة لدى الكثيرين إلى أن دحضها الدكتور س. هربرت. وهو أحد أعلام الحفريات وأستاذ الدراسات الآشورية في جامعة أكسفورد فقد قال هذا العلامة إن عقيدة الوحدانية في الديانات "السامية"(!) والسومرية قد سبقت العقيدة بتعدد الآلهة"[١].

ثانياً- المندائيون الصابئة

ولو توغّلنا أكثر في القدم قبل آلاف السنين لالتقينا بإخوان لنا في العقيدة لا تختلف عقيدتهم التوحيدية وحتى ممارساتهم العبادية كثيرا عما نحن عليه الآن، هؤلاء الأخوة هم المندائيون الذين سكنوا في شبه جزيرة العرب، يقول الدكتور أحمد داوود: "إنّ جنوب غامد من جبال السراة هو الموطن الأصلي لأولئك المندائيين، ممّا جعلهم يتوجهون في صلواتهم إلى الشمال العالي حيث بيت المقدس في المغارة المقدسة منبع الأنهار التي تروي جنة عدن ومن بينها الفرات. ثم إنهم اضطروا في حقب من حقب التاريخ إلى النزوح شرقاً عند ضفاف الفرات (الثرات) ورنيا عند حرّان الآرامية شرق غامد (وليست حرّان على الفرات في الشمال السوري)، ومن هناك تابعوا الرحيل شرقا إلى جنوب العراق الحالي حيث ما زالوا إلى اليوم"[٢].

---

[١] - موقع النور:

http://www.al-nour.com/bible/torah/torah8.htm

[٢] - أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم-١** "المركز"، ص١٤٩.

وقـد دُعـي هـؤلاء المنـدائيون بالصـابئة[١] لاعتمـادهم التعميـد وهـو الـتطهير والاغتسال بالماء في الكثير من طقوسهم العبادية، وهـو أهـم طقس ديني عندهم، وقد خلط الكثير من الباحثين بينهم وبين الحرّانيين السوريين عبدة النجوم والكواكب الذين ادعوا أنهم من الصابئة زمن المأمون حفاظاً على حياتهم، وخلاصة القصة كما ذكرها ابـن النـديم في فهرسـته (أن المـأمون في طريقـه إلى بـلاد الـروم، اجتـاز ديـار مضـر، فاستقبله على الطريق عدة طوائف ومنهم طائفة ذوو لمم كثة ويلبسـون الأقبيـة، فـأنكر المأمون زيهم وسألهم: ألكم كتاب أو نبي؟ فمجمجـوا في القـول، فقـال لهـم: إن دمـاءكم حـلال، لا ذمـة لكـم، فقـالوا: نحـن نـؤدي الجزيـة، فقـال: إنمـا تُؤخـذ الجزيـة مـن أهـل الكتـاب وأنـتم لا كتـاب لكـم فاختـاروا إمـا أن تنتحلوا ديـن الإسـلام أو دينـاً مـن الأديـان المذكورة في كتاب الله أو أقتلكم حين أعـود. فأسـلم كثيرٌ منهم وتنصّـر بعضـهم خوفـاً، وبقي البعض على معتقده فاقترح شيخ من أهل حران عليهم أنْ إذا رجع المـأمون قولـوا لـه نحـن الصـابئون، فهـذا اسـم ديـن قـد ذكـره الله في القـرآن فـانتحلوه فتنجـون بـه، ففعلوا)[٢]. فهم ادعوا أنّهم صابئون لمّا عرفوا أنّ القـرآن ذكـرهم وعدّهـم مـن أصـحاب الأديان، وقرنهم بأصحاب الديانات الثلاث وذلـك في قولـه تعـالى: (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(المائدة:٦٩).

هؤلاء هم الذين قال لهم المأمون حين ترددوا في جوابه: (فأنتم إذاً الزنادقة، عبدة الأوثـان)، أمـا المنـدائيون فيقـول أحـد شـيوخهم في تعليقـه علـى كتـاب (تـاريخ الصـابئة المندائيين)، وهو الشيخ ستار جبار حلو يقول عن الصـابئة: " ولا علاقـة لهـم بالكواكـب والنجـوم وإنّمـا أُخـذ الـنجم القطـبي كدلالـة علـى اتجـاه الشـمال حيـث الجنـة وعـرش

---

[١]- ومن الأسماء التي ألصقت بهم "الصابئة" وهـي من الكلمات العربيـة القديمـة "صبع" = صبغ، تعمّد بالماء، اغتسل، تطهر، وهي بالمندائية التي تحذف العين لفظا وكتابة "صبا" لأن التعميد أو التطهير بمياه الرب الحي "حيا" في المغارة المقدسة هي من طقوسهم الأساسية ويدعونها "يردن" أو "أردن" جمع يردا = أو"رديا" ماء التطهير. أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم**- ١ المركز، ص١٤٩.

[٢]- ابن النديم البغدادي، **الفهرست**، ص٣٨٥.

الخالق جلّ شأنه ومسكن الملائكة الصالحين في الشمال"،[1] كما ذكر أن أول أنبيائهم آدم عليه السلام وأن كتابهم المقدس (كنزا ربا) هي صحف آدم (ع).

أ- عقيدتهم

عقيدتهم توحيدية خالصة لا غبار عليها، فهم يؤمنون بالله الواحد الأحد وينزهونه بأسمائه الحسنى، يظهر ذلك جلياً لِمَنْ يقرأ

كتابهم المقدس (الكنزا ربّا) حيث يقول في افتتاحيته:

"سبحانك ربّي العظيم، أسبحك ربي بقلب طاهر ربّ العوالم كلّها مسبّحٌ ومباركٌ ومعظّمٌ ذو الوقار والجلال. الله الربّ العليّ سبحانه ملك النور السامي. ذو الحَول الشامل، الذي لا حدود لقدرته. النور البهيُ، والضياءُ الساطع الذي لا ينضَب الرؤوفُ التواب، الغفور الرحيم. مخلِّص كلّ المؤمنين وناصر كلّ الطيبين. العزيزُ الحكيم، العليم البصير العارفُ الذي على كل شيء قدير. ربُّ عوالم النور جميعها، العليا والوسطى والسُفلى. ذو السيماء العظيم الموقر الذي لا يُرى ولا يُحدّ. لا شريك له بملكه ولا كفءَ له بسلطانه. من يتكل عليه لا يُخذل، ومن يسبّح اسمه بالحق لا يخيب، ومن يتوكل عليه لا يُذلّ. ربّ الملائكة جميعاً، لا وجود بدونه وما من شيء لولاه، أزليٌّ ليس له بداية، وأبديٌّ ليس له نهاية"[2]

---

[1]- محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص١٧ .

[2] – محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص٢٣١ .



(الصورة: ١) افتتاحية (الكنزا ربا) باللغة المندائية

ب- طقوسهم العبادية

أمّا عباداتهم فهي شديدة الشبه بالعبادات في الشريعة المحمدية، لا تختلف عنها إلا في بعض تفاصيلها الصغيرة بحكم اختلاف الزمان، الأمر الذي يعني أنّها تغرف من

معين واحد، وأنّها تعاليم ربّانية تُضخ من المركز عبر الملائكة فالأنبياء ومنهم إلى أقوامهم، فالمندائيون يُرجعونها إلى صحف آدم وشيث وإدريس والتي وُجدت قبل أكثر من ٤ آلاف سنة قبل الميلاد. ومن هذه الطقوس العبادية:

١- الطهارة

"لا تصح العبادات عند الصابئة المندائيين بدون طهارة (رشامة)، والطهارة فرض على كل صابئي وصابئية. فالجنابة مبطلة للعبادات، والغسل يكون بالماء الجاري غير المنقطع عن مجراه الطبيعي. ويكون ذلك بالارتماس ثلاث مرات بعد نيّة الطهارة"[١]

كما لا تصح الصلاة عندهم بدون وضوء، وهو عبارة عن غسل اليدين والوجه ومسح الجبهة وتنظيف الأذنين بالماء والاستنشاق والمضمضة وغسل الركبتين والساقين، ويصاحب كل عمل من هذه الأعمال بعض الأذكار المناسبة، فمثلا عند تنظيف الأذنين يقول: (لتسمع أذناي صوت الحياة)، وعند المضمضة يقول: (ليمتلىء فمي بدعوات التسبيح)، أما عند غسل الساقين فيقول: (لتتبع ساقاي سبل الحق والإيمان).

"ومما يفسد الوضوء: البول والغائط، وخروج الريح، ولمس الحائض، والنفساء، وأكل شيء ما قبل الصلاة، ولا يجوز الجمع بين صلاتين بوضوء واحد، وإن لم يفسد الوضوء"[٢].

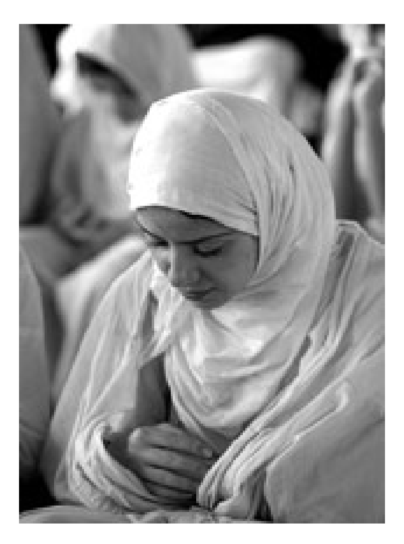
٢- الصلاة

الصلاة واجبة عليهم يؤدونها في اليوم ثلاث مرات، قبل طلوع الشمس، وعند زوالها، وقبيل الغروب، وتُفضل الصلاة جماعة أيام الآحاد وفي الأعياد، وهي تقتصر على الوقوف والركوع والجلوس على الأرض دون سجود.

---

[١] – محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص٨٧.

[٢] – محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص٨٨.



(الصورة: ٢) فتاة مندائية تؤدي الصلاة

٣- الصيام

وهو عبارة عن الامتناع عن تناول المفطرات لمدة ثلاثين يوماً يوزعونها على أيام السنة، يقول ابن النديم في فهرسته: "المفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوماً"[١]، "أما اليوم، فإن الصابئة يصومون بالامتناع عن أكل اللحوم المباحة لهم والسمك والبيض ٣٦ يوماً، متفرقة بأيامها على طول السنة"[٢] ويُسمى هذا الصيام بالصيام الأصغر، وهو مقدمة للصيام الأكبر وهو صيام الجوارح عن الآثام بالإقلاع عن المحرمات وهو مقصود الصيام، يقول كتابهم (الكنز العظيم) بهذا الشأن:

"**يا أيها المؤمنون لقد قلنا لكم أن الصيام الأكبر ليس بامتناعكم عن الأكل والشرب، وإنّما غض البصر عن النظرات الشيطانية والسيئة وعدم استراق السمع لأقوال الناس في بيوتهم.**

لا تتفوهوا بالكذب والأقوال السيئة، وطهّروا قلوبكم من الحسد والضغينة وعقولكم من الأفكار السيئة والشريرة والمنافقة لأنّ المنافقين ليسوا مؤمنين.

[١] - ابن النديم البغدادي، **الفهرست**، ص٣٨٣.

[٢] - محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص٩١، ٩٢.

الصوم هو أن لا تقتلوا ولا تنهبوا ولا تسرقوا.

الصوم هو أن لا تقربوا غير نسائكم.

الصوم هو أن لا تنحنوا للشياطين والأصنام وآلهة الكذب.

الصوم هو أن لا تسيروا في الطرق الخاطئة"[1].

إنّه حقاً لَنموذجٌ لصيام الذين من قبلنا كما قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)(البقرة:١٨٣).

٤- المحرّمات

تحـرّم تعـاليمهم الدينيـة القتـل والقتـال إلا دفاعـاً عـن الـنفس، والزنـا واللـواط، وشرب الخمر ولعب الميسر، وجاء في كتابهم بهذا الشأن: "**كل من عاقر الخمر وشربه وارتاد أماكن الفساد ووضع رجله في أماكن غير طاهرة، فلن يكون نصيبه في تلك الدنيا غير جهنم وستسكب في فمه النار الحامية**"[2]، ومن المحرمات أيضاً حلف اليمين الكاذب، والسرقة وقطع الطريق والسلب، وشهادة الزور، والنظر إلى المحصنة بريبة أو بشهوة، والغيبة والنميمة والفتنة، والامتناع عن سداد الدين أو ردّ الأمانة، والربا بجميع أنواعه وصوره، وأكل الدم أو شربه، والسحر والشعوذة، وهي تُعتبر من الأعمال السيئة والبغيضة ويُعاقب فاعلوها بأشد العقوبات، جاء في كتاب كنزا ربا ما ترجمته: "**ابتعدوا عن تعلم السحر، وخداع الشيطان، ولا تشهدوا بالباطل**"[3] وهذه المحرمات – كما نرى- لا تختلف عن المحرمات في الشريعة المحمدية وهي آخر الشرائع السماوية مما لا يدع مجالاً للشك في أنّ المصدر واحد.

---

[1] - محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص٩٢.

[2] - محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص١٧٥.

[3] - محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ص١٧٥، ١٧٦.

ثالثاً- عرب العراق وسوريا

وحـين ننتقـل إلى السـومريّين والأكـاديين والبـابليين والآشـوريين، ونسـتمع إلى تراتيلهم الدينية نجد أنّ منها ما ينضح توحيداً خالصاً وإيماناً بالله الواحد الأحد، و"أنّ **هذا الإله الواحد (الذي لا يُرى ولا يُحدّ) هو الذي كان قدماء السوريين يتوجهون إليه حينما يرتّلون في المعابد (مزامير التوبة)، فيصفونه بالإله الخفيّ، المخبوء، المحجوب، مقرّين بعجزهم عن معرفته قائلين: (إلهي إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة . . أيها الإله الذي أعرفه أو الذي لست أعرفه إنّ آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة)**"[١]

كما نجد نفس الإيمان في الكثير من التراتيل الدينية التي تُقرأ في المعابد، تقول نظلة الجبوري: "وتعد التراتيل والترانيم والابتهالات التي تقدم إلى هذا الإله أو ذاك مظهراً من مظاهر التعبير عن فكرة الحب الإلهي وتجسيدها الواقعي، على وفق ما يتضح من النصوص المتنوعة التي تضمنها الأدب العراقي القديم والتي يرفعها الإنسان إلى مقام الإله لتمجيده. ومن هذه التراتيل، نص ترتيلة للإله انليل[٢] تقول: (**أنليل ذو السلطان الشامل المطلق والكلمة السامية المقدسة يقدر المصائر والأقدار إلى الأبد، فلا تبديل لأوامره، الرب العظيم، ذو السيادة والقدرة، المتسامي في السماء والأرض، العليم بكل شيء، والمتمرس بالاحكام**)"، وترنيمة دينية تصور مشاعر الحب الفياضة التي تنعكس عن تضرع الإنسان وتذلله للإله، فيقول ما نصه: "**أنا خادمك أضرع إليك وقلبي مفعم بالحسرات، إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب، انك لتنظر إلى الرجل، فيعيش ذلك الرجل. فانظر إلي بعطف حق وتقبل دعائي**."[٣].

لقد شهدت بلاد السومريين والآكاديين والبابليين أعظم حضارة عرفها التاريخ قبل الميلاد بآلاف السنين، وإنّا لنستنتج من آثارهم ومدوناتهم صلة هذه الحضارة

---

[١] – أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- "المركز"**، ص١٥٣.

[٢] – انليل: عين إيل، أي عين الله.

[٣] – نظلة أحمد الجبوري، **جريدة الزمان**، العدد ١٩٠١، التاريخ ٢٠٠٤/٩/١.

بالسماء التي وضعت علومها وقوانينها في خدمة الإنسان، فشرّعت له القوانين التي تحفظ النفس وتبسط العدل وترفع الظلم وتنظّم الحقوق الاجتماعية والعلاقات الأسرية، يكفي مثالاً على ذلك شريعة حمورابي التي كُشفت في أنقاض مدينة السوس في عام ١٩٠٢، منقوشةً نقشاً جميلاً على أسطوانة من حجر الديوريت، وقيل عنها إنها منزلة من السماء، فترى الملك على أحد أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من (شمش)[1] وتقول في جزء من مقدمتها: "... **في ذلك الوقت ناداني أنو وبعل، أنا حمورابي الأمير الأعلى، عابد الآلهة، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي على الأشرار والآثمين، وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء.. وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق..**"[2]

ويصل عدد هذه القوانين إلى ٢٨٥ قانوناً رُتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث، كما يقول "ول ديورانت"، فقُسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة، وبالأملاك العقارية، وبالتجارة، والصناعة، وبالأسرة، وبالأضرار الجسيمة، وبالعمل.. ثم يضيف: "وهي من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة"[3].

ونجد أن قانون النفس بالنفس الذي جاءت به شريعة حمورابي هو نفسه موجود في التوراة وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: (**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)(المائدة:٤٥)، مما يدل على أنّ مصدرها واحد، وإنّ هدفها واحد وهو تحقيق العدل بين الناس (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**)(الحديد:٢٥)، وهو الهدف الذي تؤكد عليه هذه الشريعة، فتقول في خاتمتها: "**إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي**

---

[1] -(شمش) يقصد بها الشمس اتخذت رمزاً للنور الإلهي.

[2] - ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مج١، ج٢، ص١٩٠.

[3] - ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مج١، ج٢، ص١٩١.

والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة. أنا الحاكم الحفيظ عليها، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد. . . وبحكمتي قيدتهم، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة . . فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة وليقرأ النقش الذي على أثري، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة، لعل أثري هذا يكون هادياً له في قضيته، ولعله يفهم منه حالته، ولعله يريح قلبه فينادي: حقاً أن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه. لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة . . ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري"[1].

رابعاً- عرب وادي النيل

أما في بلاد وادي النيل فإنّه بالرغم ممّا ذكره الباحثون الغربيون عن كثرة الآلهة وتعدّد أشكالها واختلاف مسمّياتها، لأسباب لا صلة لها بالحقيقة، بالرغم من كلِّ ذلك تجدهم يعترفون بوجود صورة في أذهان المصريين لإله أعظم وأكبر من هذه الآلهة، يقول أدولف إرمان: "ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيراً ما تحدثوا – علاوة على آلهتهم المعينة – عن (إله عام) ويحدث ذلك عادة في الأدب عندما يفكرون في تلك القوّة التي تتحكم في مصائر الناس. فمثلا يقولون: (**ما يحدث هو أمر الله**)، (**صائد الطيور يسعى ويكافح ولكن الله لا يجعل النجاح من نصيبه**)، (**ما تزرعه وما ينبت في الحقل هو عطية من عند الله**)، (**من أحبه الله وجبت عليه الطاعة**)، (**الله يعرف أهل السوء**)، (**إذا جاءتكم السعادة، حقّ عليكم شكر الله**)" ثم يضيف قائلا: "هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة"[2]، بل ترى المنصفين منهم لا يتردد في إعلان الحقيقة كما هي دون مُواربة، ففي محاضرة له عام ١٨٦٩م صرح "دي روجيه" قائلاً: "أنا قلت (إله) وليس (آلهة).

---

(١) – ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مج١، ج٢، ص١٩١، ١٩٢.

(٢) – أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص٩٧، ٩٨.

إن الخاصية الأولى للديانة (المصرية) هي وحدة (الإله) التي نعبر عنها بكل قوة فنقول: الإله الواحد، الفرد، الصمد، لا شريك له— هو الكائن الأوحد- الحي في الحقيقة — أنت الواحد، وملايين الكائنات انبثقت منك- خلق كل شيء وهو الوحيد الذي لم يخلقه أحد ... لقد سادت فكرة واحدة، فكرة الإله الفرد الأول، هو الجوهر الواحد الدائم في كل مكان، موجود بذاته، إله لا يمكن الوصول إليه"[١]، وكان العالم "هينريش بروجش" من أبرز علماء المصريات الألمان في أيامه، وقد ظهر الجزء الأول من كتابه "الدين والأساطير عند المصري القديم" في عام ١٨٨٥م والذي يعترف فيه عن اقتناع بأنّ المصريين قد عبدوا (في تلك العصور السحيقة) "الإله الواحد، المتعذر وصفه أو إدراكه، الأبدي في صفاته الأسمى"[٢].

هذا المعنى تزخر به التراتيل العبادية وتؤكده، ففي ترتيلة آمون نقرأ ما يدل على أنّ (آمون)[٣] هو أصل كل شيئ: "**إنه وُلد (وُجد) في البدء وليس هناك إله آخر ظهر قبله، ولم يكن معه إله آخر ليشير إليه بصورته. لم تكن له أمّ تمنحه اسمه ولا أب ليكون أصلاً له وليقول له: "ها أنا ذا". إن كل شيء آخر صدر عنه**"[٤] وفي ترتيلة أخرى يصفون الإله الواحد بقولهم: "**إنّه لا يمكن تمثيله في الحجر، وإنه لا يمكن أن يُرى في الصور المنحوتة التي يضع عليها الناس التاجين المتحدين، تاج الجنوب وتاج الشمال، المزودين بصورة الصل، وما من قربان يمكن أن يقرب إليه**، وهذا شبيه بما تشير إليه الآية الكريمة: (**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**)(الحج:٣٧)، **وليس في الميسور أن نجعله يأتي من مكانه السري**.

---

[١] – إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** – الوحدانية والتعدد، ص٨، ٩.

[٢]– إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** – الوحدانية والتعدد، ص١٢.

[٣]– لقد أطلق عرب وادي النيل على الإله الواحد اسم "من" أو "معن" أي "المعنى" (إذ كانت تكتب الكلمات بدون صوتيات، وقد قرأها الدارسون مانا، مينا، مون، مونا، آمون) والكلمة في لغة "جامد" المندائية العربية القديمة التي تكلم بها إدريس والتي هي إحدى لهجات العربية السريانية القديمة هي "مانا" وتعني "المعنى". أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم**، ص١٥٣.

[٤]– أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص١٩٢.

مجهول هو المحل الذي يحل فيه، ويتعذر أن نلقاه في المزارات المنقّشة، فلا وجود لمسكن يمكنه أن يحتويه، وليس يسعك أن تدرك صورته في قلبك"[١].

وقد عُرف عن قدماء المصريين اهتمامهم بمراسم الدفن والاستعداد لما بعد الموت، فمن أين نبع هذا الاهتمام إنْ لم يكن من إيمانهم بالله سبحانه وما أنبأت به رسله من حقيقة البعث والحساب والحياة الأبدية الآخرة، بل ويؤكدون-كما في (متون الأهرام)- بأنّ الأتقياء "**لا يذهبون أمواتاً بل يذهبون أحياء**"، وأنّهم لا يحيون بعد الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب، وإنّما يُبعثون لحياة حقيقية جديدة يحرزون فيها أجسادهم وأرواحهم: "**فلهم قلوبهم، ولهم أرواحهم، ولهم أفواههم، ولهم أرجلهم، ولهم أذرعهم، ولهم سائر أعضائهم**"[٢].

كما تصوّر بردية قديمة ما يجري للميت من محاكمة بعد انتقاله إلى ذلك العالم حيث يتم وزن قلبه في الميزان العظيم بالريشة في إشارة واضحة إلى دقة الحساب (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**)(الزلزلة:٧، ٨)، ورمزية القلب تشير إلى النوايا التي تحرّك الإنسان وعليها يُحاسب فإنّما الأعمال بالنيّات (**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**)(الشعراء:٨٨، ٨٩)، ولهذا تجد عند المصريين القدماء الكثير من التعاليم التي تحذر من ظلم الآخرين وعاقبته في الآخرة وتوصي بالاهتمام والالتفات إلى المصير القادم الذي لابد منه حين يقف المرء أمام "**القضاة الذين يفصلون في قضايا المظلومين**"، وتطالبه بالمبادرة إلى العمل الصالح قبل الموت: "**لا تثق بطول السنين، فإنّهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنّها ساعة وإنّ الإنسان ليبقى بعد الموت وستكون أعماله إلى جانبه**"، "**أما من يأتي إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل إله، ويسير حرّاً طليقاً كسادة الأبدية**"[٣].

---

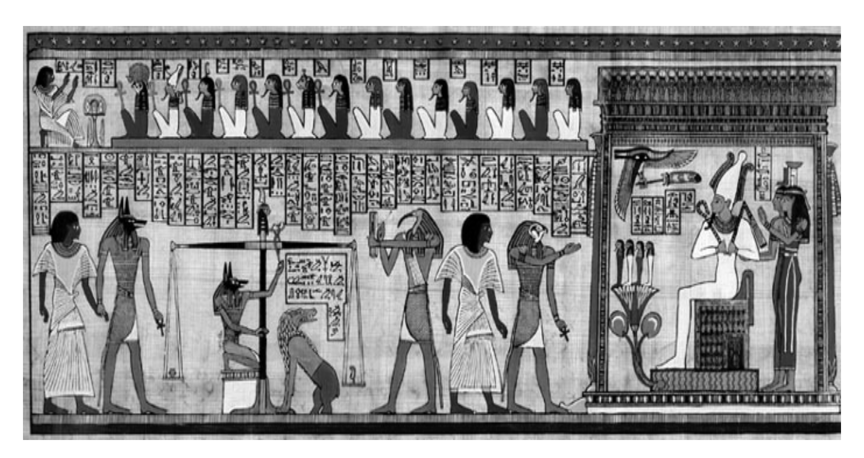
[١] - أحمد يوسف داوود، **الميراث العظيم**، ص١٥١.

[٢] - أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص٣٠٢.

[٣] - أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص٣١٠.

ومن التعاليم ما يأتي على شكل اعترافات سلبية يقدمها الميت حين المحاكمة لتبرئة نفسه من الذنوب فيدعو الإله قائلاً: "**لك الحمد أيها الإله العظيم.. هأنذا أجيء إليك، أجلب الحقيقة وأطرد الإثم. إنّي لم أقترف إثماً ضد البشر.. ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة، ولم أسع بأحد عند رئيسه، ولم أجوّع أحداً، ولم أدعْ أحداً يبكي، ولم أقتل، ولم أدعُ إلى القتل، ولم أسبّب لأحد ألماً... ولم أطفف في مكيال الحب، ولم أنقص مقياس الذراع.. ولم أسلب اللبن من فم الطفل، ولم أسرق الماشية من مرعاها، ولم أسدّ على الماء الجاري.. ولم أعترض الإله في شيء من إرادته**"[١].

فعرب وادي النيل إذن كانوا موحّدين باعتراف الكثير من الباحثين الغربيين الذين درسوا ديانة المنطقة، رغم محاولات البعض تشويه هذه الحقيقة لتصب في مصلحة الادعاء اليهودي بأنّ التوحيد في هذه المنطقة بدأ بموسى(ع) وهي فرية تاريخية أخرى[٢] لا تقل عنها نسبة اختراع التوحيد إلى الملك إخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد!



(الصورة: ٣) المحاكمة وفيها يتم وزن قلب الميت بالريشة

[١] - أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص٣١٢.

[٢] - انظر بحث: **نداء السراة** - اختطاف جغرافيا الأنبياء، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

خامساً- أخناتون والتوحيد

يُرجع أكثر الباحثين الفضل في تأسيس التوحيد في بلاد وادي النيل إلى أخناتون (١٣٧٨-١٣٦٢ق.م.)، لأنّه كما يقولون وحّد الآلهة في إله واحد هو (آتون) المتمثل في قرص الشمس! طبعا اتخاذ الشمس رمزاً للإله لم يكن أخناتون أول من بدأ به، فقد كان موجوداً قبل ذلك باسم إله الشمس (رع)، ولكن الفرق بين الحالتين هو أن التوجه إلى الشمس قبل ذلك كان توجهاً نحو ضياء الشمس كرمزٍ دال على الإله، أما توجه أخناتون فهو نحو قرص الشمس نفسه باعتبارها هي الإله واهب الحياة! الأمر الذي عارضه الكهنة، فاضطر أخناتون في سبيل فرض إلهه الجديد إلى إعلان حرب ضارية على التوجهات العبادية السائدة وخاصة التوجه إلى الإله (آمون)، فأرسل جنوده وأتباعه ليقوموا بمحو أسمائه وصوره من على الآثار القائمة، ويهشموا تماثيله في المعابد، واتخذ سلسلة إجراءات أخرى تعزّز فرض المعتقد الجديد، منها تغيير اسمه من (أمنحوتب)[١] الذي يحمل اسم آمون في أوله إلى (أخناتون) الذي يحمل اسم آتون في آخره ويعني (كاهن آتون) فهو إذاً ممثل الإله آتون! وترك العاصمة (طيبة) مركز الإله آمون، وبنى عاصمته الجديدة (أخيتاتون) في تل العمارنة[٢].

إنّ ما قام به (أخناتون) لم يكن بدافع تصحيح العقيدة والدعوة إلى التوحيد كما هو واضح من الحيثيات السابقة، وليس أدلّ على ذلك أيضاً من تأكيده على دفن عجل هليوبوليس المقدس (منفيس) في نفس الجبل الذي به مقبرته التي أعدّها لدفنه هو والملكة نفرتيتي وابنتهما ميريت آتون، لأنه تجسيد لإله الشمس! يذكر ذلك "سيريل ألدريد" ثم يعلق على ذلك بقوله: "والغريب أن هذا الاحتياط من جانب الملك يُحيي به أحد الطقوس الموغلة في القدم ويتعارض تماماً مع اتجاهه العقلاني الصارم لعبادة إله أوحد"[٣] ويلخّص "سيريل ألدريد" موضوع علاقة أخناتون بالتوحيد بقوله: "وقد

---

[١]- أمنحوتب= آمون-حو-تب = آمون خو طيبة، فالحاء السريانية خاء، والتاء طاء، أي آمون صاحب طيبة (وهي العاصمة الأولى)، وكانت كتابات الهيروغليفية بدون أصوات لا واو ولا ياء.

[٢]- سليمان مظهر، **قصة الديانات**، ص٥٠.

[٣] - سيريل ألدريد، **أخناتون**، ص١٨٤.

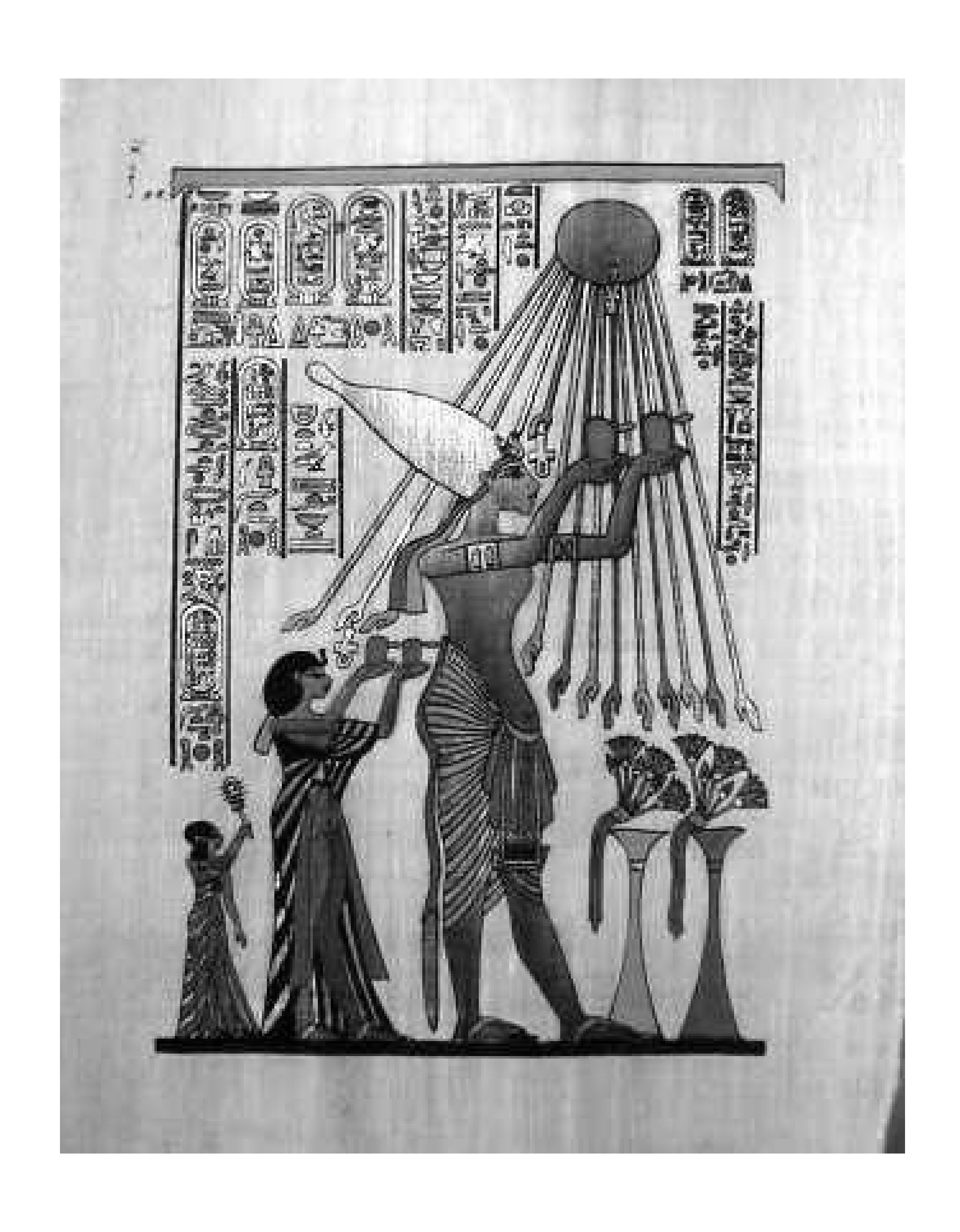
عرفنا من قبل أنّ أباه قد مجّد نفسه بنفسه باعتباره إلهاً، ولم يزد أخناتون على ذلك شيئاً عندما مجّد نفسه، وفي النهاية أصبح آتون في نظره مجرد ملك سماوي متطابق معه كملك أرضي وله نفس ألقاب نظيره الأرضي هذا (أخناتون)(!!)"[1] وفي صورة لعلّها أفضل من تلك، يصوّره (إريك هورنونج) بأنه رسول الإله آتون والوسيط الوحيد فيقول: "وكما تم تقليص العدد الوفير من الآلهة إلى واحد، تم ذلك أيضا مع مجموعة الوسطاء. فأصبح المؤمن المتعبد في عصر العمارنة يصلي في منزله أمام مذبح يضم صورة الملك وعائلته، والتي رآها (مورينز) على أنها تشير لصور الزعيم في كل المظاهر السياسية العامة، ومضمونها الديني أن أخناتون هو الوسيط الوحيد، كما تُقرر ذلك تسابيح عصر العمارنة. فيمكن تلخيص العقيدة الجديدة في الواقع في الصيغة التالية: (لا إله إلا آتون، وأخناتون رسوله)"[2].

إنّ فرض العقيدة على الناس دون إقناع واقتناع داخلي لا يثمر إيماناً بل خضوعاً صورياً لهذه العقيدة، ولهذا كانت دعوة الأنبياء إلى التوحيد تلامس دوماً عقل الإنسان، وتروم التأثير على قلبه لا قالبه، ولو شاء الله لأنزل على الناس من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، يكفي لإقامة الحجة عليهم أن يذكّروهم بمنسيّ النعم التي لا تُحصى، وبما انطوت عليه فطرتهم من توحيد للإله الواحد الأحد (**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**)(الغاشية:٢١، ٢٢)، لا أن يُفرض ذلك عليهم من الخارج وبالقوة! فذلك لن يُؤتي ثماره، وهذا ما حصل بالفعل، فبعد رحيل أخناتون وزوال القوة التي كانت ترعى الديانة المفروضة رجع الناس إلى عباداتهم السابقة، إنّ ما فعله أخناتون أقرب ما يكون إلى جرّ الأمة لتوحيد ولائها إليه منه إلى التوحيد العقائدي الصحيح.

---

[1] – سيريل ألدريد، **أخناتون**، ص٢١٥.

[2] – إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** – الوحدانية والتعدد، ص٢٥٩.



أخناتون يصلي للشمس مع زوجته نفرتيتي وابنتهما ميريت (الصورة: ٤)

الفصل الثالث

تعبيّر الأوائل عن عقيدة التوحيد

إنّ قراءة متعمّقة في التراث العربي الديني تكشف لنا عن حقيقة الإيمان العميق لدى العرب الأولين بالإله الواحد الأحد، الذي خلق السماءَ والأرضَ والماء والهواء والدوابّ، بل تكشف لنا عن معرفتهم بالكيفية التي تمت بها عملية الخلق تلك، وأنّها تمت بواسطة الملائكة الموكلة بتدبير شئون الخلق وفق إرادة الله سبحانه، وإنّ العرب كانوا يحتفظون بهذه المعارف والتعاليم في المعابد مكتوبةً بطريقة خاصة يعتبرونها كتابة مقدسة صوناً وتمييزاً لها عن الكتابة العادية، وهذه المعرفة بهذه الأمور الغيبية لا يمكن أن تُتحصّل إلا بتعليم رباني تمّ بثّه عبر الملائكة والأنبياء(ع) من مركز الإشعاع التوحيدي، وبالطبع فإنّ ذلك كلّه لا يمنع من طروء حالات من الشرك حينما تضعف موجة البثّ الإيمانية كلّما ابتعدنا عن نقطة البث مكاناً أو زماناً حيث تقسو القلوب فتزيغ عن الحق (**كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**)(الحديد: ١٦).

أولاً- الفكرة أرقى من الكلمة

إنّ تعبير الأولين عن عقيدتهم التوحيدية آنذاك يقصُر اليوم عن إيصال فكرة التوحيد إلى أذهاننا كما هم وعوها وآمنوا بها بالأمس البعيد، وذلك لأنّ الكلمة وهي وسيلة التعبير عن الفكرة أو المعنى لا ترقى أبداً إلى مستوى الحقيقة التي في ذهن قائلها، فمهما كانت الكلمات أو الأسماء فهي لا تحيط بحقيقة المسميات وإنما هي صورة عنها ونسخة منها لا هي هي، والنسخة لا تكون كالأصل تماماً، فكلمة (حاسوب) مثلاً تدل على جهاز متطور يُستخدم لمعالجة المسائل ذات العلاقات الرياضية المعقدة، وهي تعبير لتوصيل فكرة هذا الجهاز، وليست هي هو كما لا تغني معرفتها عن معرفته لمن أراد التعامل معه، هذا في الماديات وكذلك في المجرّدات فكلمة (الصدق) لا يمكن إدراك معناها إلا عبر رؤية آثارها ضمن ممارسات وأفعال كثيرة وفي

ظروف مختلفة تعبّر كلُها عن معنى الصدق، ويكون الأمر أكثر تعقيداً عندما يكون الكلام عن عالم الروح، فلا يمكن ملامسة حقيقة الروح من خلال الكلمة (**وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**)(الإسراء:٨٥).

وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة (الله) الذي هو اسم يدل على معنى، وهو كما قال الإمام الصادق (ع) لهشام بن الحكم حينما سأله عن أسماء الله سبحانه: "**... والاسم غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد الاثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد**"، فقال له زدني فقال: "**لله تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كل اسم منها هو إلها، ولكن الله عز وجل معنى، يدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره ..** "[1].

ومن ذاق طعم الحقيقة فليس بمقدوره أن ينقل التجربة عينها للآخرين عبر الكلمات على طريقة القطع واللصق دون معايشة الحقيقة وحصول الكشف فيها وتذوقها، ولذا قيل (من ذاق عرف)، وإنما يستطيع بالكلمات أن ينقل صورة عنها فقط، قد تقترب أو تبتعد عن الحقيقة الأصلية حسب دلالات الألفاظ المستخدمة ودقتها من جهة، واستعداد المتلقّي من جهة أخرى.

ثم أنّ الأولين حين عبّروا ورمّزوا وكتبوا عن عقيدتهم، فعلوا ذلك حسب مستواهم المعرفي وبلغتهم البسيطة المتاحة، ولم يكن في اعتبارهم الدارسون الذين سوف يُخضعون تلك التعابير والرموز للدراسة والتحليل بغية فهمها بعد آلاف السنين، فهم قد كتبوها لأنفسهم وبلهجاتهم التي يفهمونها والتي يتخاطبون بها، فإنّهم مثلاً حين يصفون الإله بـ(**كثيرة عيونه وكثيرة آذانه**)[2] إنما يقصدون بذلك أن يصفوه بـ (البصير السميع)، المشكلة إذن في فهمنا نحن، خصوصا بعد تضليل الباحثين نتيجة أخطاء الترجمة التي ربما حرفت الكلمات عن معناها الأصلي، فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الكلمات مرّت بأطوار من التشكّل عبر رحلتها من جيل إلى آخر ومن مكان إلى غيره، وأنّ الكثير منها كان يتعرض للزيادة أو الحذف أو الإبدال أو الإقلاب، وأنّ اللغة

---

[1] - الصدوق، **التوحيد**، ص٢٢١ .

[2] - فراس السواح، **معتقدات الشرق القديم** : **http://maaber.50megs.com**

المستعملة ليست جامدة وإنما تتطور مع ظهور الاحتياجات الجديدة وزيادة الاكتشافات وتلاقح اللهجات، وأنّها وصلتنا اليوم مكتوبةً وليست منطوقة، وأنّها كانت تُكتب كما تُنطق بدون حركات أي ساكنة وبدون تصويت، إذا أخذنا كل ذلك في الاعتبار أدركنا كم هي قاصرة اليوم وغير قادرة على التعبير لنا عن المعنى الحقيقي الذي وُضعت له أول مرة، ولابد لفهمها الفهم الصحيح من الرجوع بها إلى أصلها العربي القديم.. اللغة العربية القديمة وما تفرّع عنها من لهجات سريانية وآمورية وفينيقية، وتشعّباتها.

ولهذا جاءت الشريعة المحمدية مكتسيةً حُلّة اللسان العربي المبين، وباعتبارها آخر الرسالات السماوية، جاءت تعاليمها فيما يخص العقيدة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، صادحةً بالدعوة إلى التوحيد ونفي الأنداد والنهي عن الشرك، مزيلةً كل أسباب التوهم والالتباس، وكما قال رسول اللّه (ص) في أواخر حياته: (**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**)[١].

وقد علّل القرآن نزوله عربياً بـ (**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)(يوسف:٢)، و(**لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ**)(الشورى:٧)، و(**لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ**)(الأحقاف:١٢)، ولا يمكن أن يكون كذلك لمن نزل فيهم وللأجيال اللاحقة على مر السنين إلا إذا كانت لغته وبهذه الصيغة التي نزل بها قادرةً على اختزان المعنى والمحافظة عليه، ليكون المعجزة الخالدة لا كما كانت معجزات الرسل السابقة ذات الطابع المحسوس والمحدود بظرفي الزمان والمكان. فالقرآن هو الكلام المعجز والمعبِّر تعبيراً واضحاً عن عقيدة التوحيد الحقّة، والحافظ لها على مر العصور حتى نهاية الأجل المسمّى للإنسانية، وقد تولت العناية الإلهية حفظ هذا الكتاب باعتباره آخر الكتب السماوية من أن تطاله أيدي التحريف أو التغيير لطول العهد أو كثرة النقل عبر الأزمان، ليكون حجة على مَنْ بلغه حيث تصله رسالة ربّ العالمين كما نزلت نصّاً محفوظاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، (**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ**

[١] – ابن ماجة، **السنن**، ج١، ص١٦.

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(الأنعام: ١٩)، وكما نرى فإن مضمون هذه الرسالة أو الإنذار يتلخص في التوحيد، ليتساوى الناس في الامتحان الإلهي، ثم ليختلفوا هم بعد ذلك- فهذا شأنهم- حسب سعيهم وجدهم في الفهم والتطبيق، ولهذا تعهّد الله سبحانه بحفظه (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)(الحجر:٩)، وتحدّى الجن والأنس أن يأتوا بمثله، وأكّد أنّهم لن يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، تحقيقاً للوعد الإلهي بظهور الدين الحقّ على الدين كله ولو كره المشركون.

ثانياً- الآلهة والأرباب

لقد شاب كلمة (الآلهة) الكثير من التشويش وعدم الوضوح عند الباحثين في تاريخ الديانات السابقة فاعتقدوا خطأً كما فعل كريمر ومَنْ أخذ عنه مع الأسف، أنّ ديانة السومريّين تنضح وتعجّ بتعدّد الآلهة، ولا يدري أنّ المترجمين والمفسّرين هم الذين أخطأوا في الفهم، فعقيدةٌ تعجّ بالأخلاق والحِكَم الرفيعة والمُثُل وشرائع العدل والتكافل لا يمكن أن تكون وثنيّة وخرافية، ولو قرأوا القرآن ورأوا يوسف (ع) يقول للساقي السجين: (**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**)(يوسف:٤٢)، وهو يقصد ملكه فرعون، لظنّوا أنّ يوسف مشركٌ، أو قول عيسى (ع): (**لأنّ أباكم واحد الذي في السماوات**)(**متى ٢٣: ٩**) لظنوا بولادة البشر من الإله الواحد الصمد، أو قول المزامير في التوراة بنفس المعنى: (**الله قائم في مجمع الألوهيّة، في وسط الآلهة يقضي**)(**مزمور٨٢ :١**) فها هنا آلهة أيضاً.

إذن، هي كلمات دارجة، لا يُخطئ في فهمها إلاّ من أتى من خارجها، فالسومريّون لمْ يكتبوها لنا بمعزلٍ عنهم، هم كتبوها لأنفسهم ولأجيالهم الذين يعرفون اللغة، والذين سيتعلّمونها بدورهم على أيدي معلّميهم من كهنة المعابد بالخصوص، تصوّر لو وقع بين يديك تعاليم في الهندسة الجينيّة، أو الكيميائية، أو النوويّة أو تعليمات برمجة كمبيوتريّة، فإنْ كان ليس عسيراً عليك اليوم أنْ تُحوّلها إلى ألفاظ صوتية وتعرف أيضاً معاني مفرداتها، فهل تستطيع فهمها من دون مختصّ في ذلك العلّم المسطور؟

فالذي لا يفهم من كلمة "عبد" إلاّ التعبّد للإله وطقوس الركوع والسجود والتذلّل، وليس الخدمة أو الطاعة أو الحبّ أو الارتباط أو الشغف بالتفكير في الشيء "المعبود"، وليس التسخير والتهيئة (منْ "عبّد")، لحتمَ جازماً أنّ "عبد مناف" و"عبد شمس" و"عبد المطّلب" و"عبد الدار" كلّهم مشركون ليس فيهم أحناف ولا موحّدون، ولكفّر اليوم مَنْ تسمَّوا بـ"عبد الرسول" أو "عبد الحسين"، ولربما استُنتجَ من اسم "عبد الزهراء" أنه من عبدة النجوم والكواكب! إنّما الذنب ذنبُ الترجمة ثمّ في الفهم والتفسير، هذا علاوةً على ما يُضاف من تصوّر سابق، ونعني به الفكرة السائدة بأنّ التوحيد بدأ بموسى (ع)، وبأهل التوراة، والعرب خلال التاريخ كانت وثنيةٌ، هذا وهْمٌ وخطيئةٌ كبرى! فأين ذهبت الأنبياء والنّاس منذ آدم الأوّل؟!

إنّ قدامى العرب، لم تُخطئ حين ميّزت الملائكة التي تقف وراء ظواهر الطبيعة وقواها وقوانينها بتسميتها "أرباباً" كما نُسمّيها اليوم "أسباباً" و"قوانين" و"وسائط" و"تجلّيات" و"رُسل ربّانية" فالأمر واحد، مفاده أنّ لها السلطان علينا وأنّا يجب أنْ نخضع لها ونطيعها لأنّها قوانين ونُظُم، ويسبق لنا الهلاك متى تمرّدنا عليها وعصيناها.

بل لا تبعد صحة تسميتها عندهم بالآلهة من باب نسبة أدوارها إلى الله سبحانه في علاقة طولية منسجمة مع الإرادة الإلهية فهم (**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**)(الأنبياء:٢٧)، دون أي استقلالية (**وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**)(الأنبياء:٢٩)، ومثال ذلك (توفي الأنفس) فهو فعل واحد يُنسب إلى الله مرة وأخرى إلى ملك الموت أو الملائكة باعتبارها منفذة ومدبرة ومجسدة لإرادة الله سبحانه، تماماً هو المعنى الذي نجده في أحد الأدعية: **(اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك المأمونون على سرك المستبشرون بأمرك الواصفون لقدرتك المعلنون لعظمتك، أسألك بما نطق فيهم من مشيتك فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك أعضاد وأشهاد ومناة وأذواد وحفظة ورواد، فبهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا**

أنت . . .)[1] إذن فهي مخلوقات علوية أُنيطت بها أدوارٌ تُبرز فاعلية بعض أسماء اللّه الحسنى بلغتنا اليوم، وتجسّد القدرة الإلهيّة في محيطنا، كالخالق والرزّاق والودود والحفيظ والمميت. يُنظر إليها بهذا اللحاظ فقط، ومنه نفهم قول دعاء يُروى عن الإمام الصادق (ع): (**يا الله يا رحمن يا ربّ الأرباب وإله الآلهة ويا ملك الملوك ويا سيد السادة اشفني بشفائك من كل داء وسقم فإني عبدك أتقلب في قبضتك**)[2] وما جاء على لسان موسى(ع) وتضمنته التوراة (**لأنَّ الرَّبَّ إلهَكُمْ هُوَ إلهُ الآلهَة وَرَبُّ الأَرْبَابِ الإلهُ العَظِيمُ الجَبَّارُ المَهِيبُ الذِي لا يَأْخُذُ بِالوُجُوهِ وَلا يَقْبَلُ رَشْوَةً**)(تثنية١٧ : ١٠).

إنّهم لمْ يتوسّلوا لها بالعبادة والتوحيد، ولا بالاعتقاد بمشاركتها الإله الواحد كحال الوثنيّين، ولم يحبوها معه بل أحبوها فيه وكانوا يعرفون أنّ لها مدبّراً مالكاً هو ربّ الأرباب، إله الآلهة (نسمّيه اليوم ربّ الأسباب/ مسبّب الأسباب/جاعل الملائكة رسلاً، الأمر واحد). ولمْ يُخطئوا حين جعلوا كلّ مَن هو مفترض الطاعة ربّاً، ونحن نسمّيه اليوم معلّما ومربّياً، فلغتهم -التي يفهمونها هم- تُسوِّغ لهم أنْ يُسمّوا أمير الجند ربّاً، والمعلّم، والملك، والقاضي، والمشرّع، أرباباً، هم لا يعنون أنّ هذه الأصناف كائنات غير بشريّة، ولا أنّهم غير مخلوقين فيستحقّون العبادة والتأليه، بل عنوا أنّهم يستحقّون التبجيل والطاعة والإذعان وخلافة اللّه فيهم.

فضلاً أنّ اللغة لمْ تتخصّص مفرداتها بعد، فاللّه ربّ، والمدبّرون أرباب، وقوانين الطبيعة أرباب، وساسة المدينة أرباب، وهذا كما نحن نقول اليوم: ("اللّه نور"، والشمس نور، والقمر نور، ونور القمر من الشمس، والوحي نور، والنبوة نور والنبيُّ نور، والعقلُ نور، والملائكة من نور، والمصباح نور، والعلّم نور، والشمعة تُولِّد النور). فتصوّر لو جاء بعد زمن مَنْ أراد أنْ يُحلّل عقيدتنا من كلامنا في الجملة السابقة، لتوصّل بأنّ الملائكة التي من نور هي بنات اللّه لأنّه النور، ثمّ لأخبر بأنّا نعتقد أنّ اللّه له أندادٌ وإخوةٌ كثيرون ابتداءً من المصباح وصولاً للشمس، ولأشكل كيف أنّ القمر هو

---

(1) - الطوسي، **مصباح المتهجد**، ص٨٠٣.

(2) - الكليني، **الكافي**، ج٢، ص٥٦٦.

ابنٌ للشمس ثمّ صار نوراً (إلهاً) مثلها، ولاستنتج بالمنطق نفسه أنّنا نقول أنّ الشمعة هي أمّ اللّه لأنّها ولّدت النور! بمثل هذه الأغاليط تمّت معالجة الكثير من تراث المعلّمين الأوائل فأجحفنا في حقّهم وجحدنا فضلهم، وصرنا نكرّر ما يُقال لنا مُستَورَداً بشأنهم.

فالأوائل سمّوا عناصر الطبيعة والاجتماع الإنسانيّ الفاعلة أيّاً كانت أرباباً، إنّما من دقيق فهمهم ومن احترامهم للنواميس ولقوانين الطبيعة والاجتماع، لا من سخف عقولهم وسفههم، بل الحقائق التي كانوا هم عليها لو التزم الناس بها اليوم لما تاهت البشرية ولألفينا أنفسنا في انسجام أفضل مع بعضنا، ومع الطبيعة، ومع الكون ونواميسه، ومع خالقنا العليّ.

أما اليوم فأنّ الحساسيّة من كلمة "أرباب" يستشعرها كلّ مؤمن موحّد في اعتقاده، حيث لا ربّ حقيقي إلاّ اللّه تعالى، فكذلك الإله فلا إله إلاّ اللّه، لذلك ضمّن القرآن الاثنتيّن قطعاً لأيّ التباس، فكما جاء (**وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)(آل عمران:٨٠)، (**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)(التوبة:٣١) جاء أيضاً (**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**)(الزخرف:٤٥)، فعلى المستوى العقائدي والحقيقي، لا ربّ ولا إله، بل ولا محيي ولا مميت ولا رازق، بل ولا حيّ ولا كريم ولا قدير ولا عالم، إلاّ اللّه تعالى، لكنْ على مستوى المثيل، تتّسع اللغة لتسمية المربّي والمباشر للرعاية والمسئول ربّاً، كربّ الأسرة وربّ العمل ولذلك قال يوسف لساقي الملك (**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**)(يوسف:٤٢)، وقوله عن سيّده الذي آواه فلا يجدر به خيانته (**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**)(يوسف:٢٣)، ولو كان يعني "اللّه" للزم أنْ يقول (معاذ اللّه ربّي، الذي أحسن مثواي). ولما أتى بوصف "**الظالمون**" الوصف اللائق بالتعدّي على حقّ الغير، ولذلك عقّب في فترة لاحقة في القصّة (**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**)(يوسف:٥٢)، هذه المفردة "الربّ" أطلقها العرب على كلّ من له مكانة عالية، كمعلّم، ورسول، وملك، ورئيس، لذلك نقرأ في الإنجيل: (**فَالْتَفَتَ يَسُوعُ**

وَنَظَرَهُمَا يَتْبَعَانِ فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالاَ: «رَبِّي (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ) أَيْنَ تَمْكُثُ؟»(يوحنّا ١:٣٨)، فالمعلِّم والرسول ربٌّ (لُغةً) أيضاً.

ثم إنّ هناك الكثير من النصوص الدينية الثانوية أُعطيت من قبل الدارسين الأجانب نفس قيمة النصوص الأصلية في الدلالة على جوهر المعتقد، مما أخلّ بالمنهجية العلمية للدراسة بافتراض مقدمات غير صحيحة، فكانت النتيجة مسخاً مشوهاً للعقيدة لا يقرّ بها عاقل. وذلك حين اعتبر الكثير من الباحثين في هذا الموضوع أنّ ما حوته بعض الأساطير من كلام عن الإله أو تجلياته وصفاته، أو من الصلوات وتعابير الحب والخضوع له التي صاغها المؤمنون به، اعتبروها بمثابة النصوص الأصلية التي تدل على العقيدة، والحقيقة إنها تعابير أصحابها يعبرون بها عن مستوى ما عرفوه عن الإله والكائنات العلوية في أحقاب مختلفة، وهي ليست بالضرورة كاملة الدقة والصحة كما في النصوص الأصلية التي إمّا أن تكون مما حوته الصحف والكتب السماوية أو من أقوال الأنبياء والأولياء الصالحين الذين عرفوا الله سبحانه حق معرفته فوصفوه بما يليق من أسمائه وصفاته، وقد أثبت القرآن الكريم صحة وصفهم بقوله: (**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ❁ إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**)(الصافات:١٥٩، ١٦٠).

ولو أننا لم نسلّم بالنتيجة القائلة: بأنّ آباءنا الأولين لم يعرفوا حقيقة التوحيد إلا بعد مراحل من الوثنية والشرك وعبادة الآلهة المتعدّدة! والتي لا تخلو من قصد الإساءة إلى هذا التراث العظيم، ورجعنا إلى النصوص الأصلية لما ساورنا أدنى شكٍّ في دلالتها على جوهر العقيدة الصحيحة، فنصوص المندائيين، ونصوص الحكمة المنتشرة شرقاً وغرباً تدل دلالة واضحة على أنّها حين تذكر الإله فإنّما تعني به الإله الواحد الأحد:

"**لا تتباه بقوتك... فلا نعرف ما سيحدث (ولا) ما سيفعله الإله عندما يعاقب**"

"**لا تؤذ أحداً من البشر، لأن الإله يعاقب بالمثل... إن ما يخططه الإنسان لا يتم أبداً، ولكن أوامر الإله هي التي تنفذ**"

"الذي يسمع (يطيع) هو الذي يحبه الإله، والذي يكرهه الإله لا يمكنه أن يسمع"

"إن إردباً أعطاك الإله إياه أفضل من خمسة آلاف تكسبها ظلماً"[(١)].

ثالثاً- إله واحد ومظاهر متعددة

لقد جرى الخلط بين الإله الواحد الأحد وبين تجلّيات القدرة الإلهية حين صنّفها الباحثون – قصوراً أو تقصيراً- في عداد الآلهة، وخرجوا لنا بقائمة طويلة من الآلهة المتعددة بأسماء مختلفة، بينما هي تجليات وفيوضات ومبادئ وقوى إلهية أقرب إلى تسمية (الأرباب) منها إلى (الآلهة)، يقول أحمد يوسف: "إنّنا إذاً، عندما نقول كلمة (إله)، فإنما يجب أن نعني العلة بإطلاق، أي: العلة غير المعلولة. وهذه العلة واحدة ووحيدة ولا تقبل المشاركة"، ثم يؤكّد حقيقة "أنّ العرب القدماء لم يقولوا بتاتاً بآلهة بل بإله واحد، وبمبادئ إلهية صادرة عنه يتجلّى فيها قانونه في الخلق أو قدرته، وينبغي أن يُقْصَر وصفها في هذا الحدّ من الإدراك على أنّها (أرباب) تمييزاً له عنها"[(٢)].

وإننا لنستغرب أن يستطيع بعض الباحثين الغربيين تقديم قراءة صائبة لهذا التعدد، بينما يعجز البعض من باحثينا عن قراءتها بشكل صحيح، كتب "بول بييريه" عن عقيدة التوحيد المصرية يقول: "... حيث تبدو الديانة المصرية متعددة الآلهة ولكنها كانت توحيدية بالضرورة ولا يمكن أن تكون غير ذلك لأن "الإله واحد، وإلا فلا وجود له".. فالإيمان بآلهة كثيرة هو إنكار للإله ما لم ينظر إليها باعتبارها "رمزية صرفة" فهي أدوار أو وظائف للإله الأعلى المفرد الخفي.. الذي تحوي النصوص الدينية المصرية له العديد من الصفات "التوحيدية" الواضحة. ويرى "فرانسوا جوزيف

---

(١) – إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** – الوحدانية والتعدد، ص٤٦ .

(٢) – أحمد يوسف داوود، **الميراث العظيم** ، ص١٤٩ .

شاباس"، أيضاً، أن الآلهة المتعددة هي مجرد مظاهر للإله الواحد"[1] وهكذا تجد أن هناك عدد غير قليل من العلماء "يؤكدون أن الديانة المصرية هي توحيدية بالضرورة، وأن تعدد الآلهة إنما يرجع فقط إلى تجسيد الصفات المميزة، وخصائص ووظائف الإله الأعلى"[2] وما ينطبق على وادي النيل ينطبق أيضا على السومريين والبابليين والآشوريين كذلك، بل وينطبق على دين المسلمين بفلسفته الحالية فيفهم الإله العلي (الله) عبر معرفة تعدّد أسمائه وتكثّر أفعاله، لا غير. فهو الوحدة المتجلّية في الكثرة، والتعدّد المنضوي في الواحد.

رابعاً- إيزيس وأوزيريس هل هما حقاً من الآلهة ؟!

إنّ ما قلناه سابقاً في الرد على دعوى تعدّد الآلهة عند عرب العراق والشام هو نفسه يدحض دعوى الشرك والوثنية عند سكان وادي النيل، فالشعب واحد، والدين واحد، والأسباب التي أدت إلى هذه الدعوى هي نفس الأسباب.

لا يستطيع أحد أن يتجاهل الإرهاصات التي شهدها وادي النيل في الألف الرابع قبل الميلاد بولادة حضارة إنسانية، والخروج من حالة التخلف والهمجية بقيادة الملك الصالح "أوزيريس" وزوجته "إيزيس"، وبمعاونة المعلّم الرباني "تحوت" وهو النبي إدريس (ع) الذي أحدث نُقلة نوعية لأهل تلك البلاد بتعليمهم الكتابة وعلوم الحساب والهندسة والمساحة والعمارة، وهو كغيره من الأنبياء لابد أنّه وظّف هذه العلوم في الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ونشر الأخلاق والفضيلة، فالتوحيد موجود في هذه المنطقة منذ ذلك الحين، كان هو وأوزيريس صاحب الصولجان، وربّ البلاد، وصاحب السيادة والسيطرة، وزوجته إيزيس يمثلون فريقاً ثلاثياً متكاملاً يرجع له الفضل الكبير في إرساء قواعد الحضارة والعدالة وسنّ القوانين الاجتماعية والأخلاقية الراعية لكرامة الإنسان في بلاد وادي النيل وفي غيرها من البلدان، وإنّنا لنجد في النصوص التراثية القديمة على لسان إيزيس ما يؤكد ذلك ويشير إلى بعض

---

[1] - إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** - الوحدانية والتعدد، ص١١.

[2] - إريك هورنونج، **ديانة مصر الفرعونية** - الوحدانية والتعدد، ص١٢.

تلك الإنجازات ودور النبي إدريس (ع) فيها: "**إنّني أنا إيزيس، عاهلة البلاد جميعاً، لقد تعلمت على يد هرمز(وهو إدريس)، وابتدعت بالاتفاق مع هرمز الكتابة الشعبية حتى لا يكتب كل شيء بحروف واحدة، لقد سننت للناس القوانين، وأبرمت ما لا يستطيع البشر نقضه إنني كبرى بنات كرونوس، إنني زوج الملك أوزيريس وأخته**[1]**. إنني أنا التي تشرق في نجمة الكلب، إنني أنا التي يسميها النساء (ربّة)!.. واخترعت الملاحة.. وعقدت بين الرجل والمرأة.. وقضيت بأن يحب الأبناء آباءهم، لقد وضعت مع أخي أوزيريس حدّاً لأكل البشر، وأريت الناس الأسرار الخافية.. لقد أذلت دول الطغاة، وحملت الرجال على حبّ النساء، وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة، وقضيت بأن يرى الناس الحق جميلا**"[2].

إنّ الدور التعليمي الكبير الذي قام به هؤلاء الثلاثة لم يقتصر على بلاد وادي النيل بل شمل منطقة واسعة حيث كانوا يجوبون الأرض ويؤدون واجبهم في نشر العلم والفضيلة، هذا ما نفهمه من كتابة وُجدت على قبر أوزوريس تقول: "**إنّ أبي هو كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين! وإنني أنا الملك أوزيريس الذي أدار الحب في أنحاء الأرض كلها حتى بقاع الهند الخاوية، وحتى مناطق الشمال إلى منابع الدانوب، ثم إلى المحيط. إنني أنا الابن الأكبر لكرونوس، وقد ولدت جنيناً من بيضة جميلة شريفة وليس في العالم مكان لم أبلغه، وقد منحت الناس أجمعين ما وجدته**"[3].

وهنا كما في باقي البلاد العربية سمّى الأولون المعلّمين من الأنبياء "أرباباً" من معنى التربية التي مارسوها بالتعليم، كما سموا أصحاب التشريع والصولجان والسلطة سواء من الملائكة أو الملوك "أرباباً" أيضاً ولكن من معنى السيادة والسيطرة،

---

[1]- إن التعبير عن الزوج بالأخ يُقصد به أنه من نفس العشيرة وليس كما ظنّه البعض زواج محارم. وقد أشار القرآن الكريم إلى أُخوّة القوم أو العشيرة في قوله تعالى: (**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ..**)(هود: ٥٠)، وقوله: (**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً.**)(هود: ٦١) وكذلك: (**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً.**)(هود: ٨٤).

[2]- أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص٥٥٩، ٥٦٠.

[3] - أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص٥٦٠.

ولم يدرك الدارسون الأجانب الفرق بينهما وظنّوا أن معنى الكلمتين (المربّي والربّ) واحد لاشتراكهما في الجذر، خصوصا إذا ما علمنا أنّ الكلمات في اللهجات العربية القديمة كانت تكتب كما تُنطق أي بدون حروف المد الصوتية- كما ذكرنا سابقاً-، فكلمة (رَع) ما هي في الحقيقة إلا (الراعي)، ثم جاءت أخطاء الترجمة لتصادر ما تبقى من الحقيقة حين ترجموا كلمة (ربّ) بمعنى (إله)! فأيّ حقيقة تبقى بعد ذلك؟! وأكبر دليل على مشكلة الترجمة هو العبارة الواردة في النص السابق لإيزيس (**إنني أنا التي يسميها النساء ربّة**)، ففي الوقت الذي تُرجمت في كتاب أدولف إرمان هكذا: (**إنني أنا التي يسميها النساء آلهة**) فقد وردت في كتاب الدكتور أحمد داوود بكلمة (ربّة) بدل (آلهة)، رغم أنّها منقولة عن نفس الكتاب ولكن بطبعة مختلفة كما تؤكده اختلاف أرقام الصفحات!

ويشير الدكتور أحمد داوود إلى التضليل الذي طمس الحقائق بسبب أخطاء الترجمة، "فقد فهموا الكلمات الدالة على "رب" (التي كان يستخدمها السوريون بمعنى "سيد") بمعنى "إله". ثم يقول: إن هذا هو ما أشار إليه أيضاً فيلون الجبيلي إذ كتب يقول: "إنه لمن الضروري الإعلان سلفاً، وبكل صراحة، ومن أجل المعرفة الجزئية لجميع ما تلا ذلك، أن أقدم الناس، وبخاصة الفينيقيين والمصريين، الذين كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين، كانوا يرون أن الأرباب الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا، أو الذين عمموا الخير، مهما تكن طبيعته، بين الشعوب. وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها"[1].

السبب الآخر الذي أربك الفهم وأساءه هو أخذ هذه المعلومات من الأساطير دون تحقيق وتدقيق، ونحن نعلم ما في الأساطير من الحقائق العلمية والأحداث التاريخية التي عرفها الأولون بتعليم رباني عبر أنبيائهم، ولكنها سُكبت في صياغة أدبية ممزوجة بالإضافات التشويقية والمحسنات البديعية لتسهيل حفظها وتناقلها شفوياً عبر الأجيال، علاوة على التعديلات والتغييرات التي أُجريت لها خلال رحلتها من مكان

---

[1] - أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم**، ص٩٠.

إلى آخر وجيلا بعد جيل، يُضاف إلى ذلك أنّها لم تصلنا في نصّها الأصلي وإنما عبر المهتمين بعلم الأساطير من الأجانب الذين ترجموها لا حسب ما تريد الأسطورة قوله، وإنّما حسبما فهموها على خلفية نظرتهم غير الصحيحة القائمة أساساً على تحريفات لتاريخ المنطقة، منها مثلاً القول بأنّ التوحيد في مصر بدأ بموسى (ع)! وأنّ الحضارات العربية القديمة في مصر أو بابل تعجّ بالآلهة والأوثان كالإغريق والرومان! إذا عرفنا كل ذلك لزمنا التمحيص والتدقيق قبل القبول بالنتائج خصوصاً فيما يتعلق بموضوع التوحيد وتعدّد الآلهة. يقول مجدي كامل فيما يتعلق بأسطورة أوزيريس: "لم يكتب المصريون أسطورة أوزوريس في قصة واحدة. وقد وصلت إلينا عن طريق الإغريق، وجاء في الوثائق المصرية على أنها نصوص دينية، وكان ذلك أولا في نصوص الأهرام، على أنّ أحداثها قد وقعت قبل كتابة نصوص الأهرام بحوالى ستة قرون، وتعرضت لكثير من التعديلات"[1] فلا غرابة بعد ذلك أن تجد أوزيريس في جزء من الأسطورة في ثوبه البشري كعاهل للبلاد، وفي آخر منها في ثوب مختلف مع الكائنات العلوية الأثيرية في الجنة، وفي ثالث بعد رحيله "يصير أوزيريس سيداً لعالم الأموات، وملكاً على العالم السفلي، ورمزاً للقيامة، وتوكيداً للبعث، وإعلاناً للبشارة بالحياة الأخرى، لا للملوك وأمثالهم، بل للبشر أجمعين" في أسطورة واحدة تلغي عامل الزمان وتختزل الشخصيات المهمة سواء الحقيقية منها أو المرمّزة في شخصية محلية واحدة!

وبقليل من التركيز والفطنة يمكن للقارئ في هذه الأسطورة أن يفكّك هذه الشخصيات ويحدّد الدور الصحيح لشخصية أوزيريس الموصوف بالصالح دائماً، تقول الأسطورة: "**وقد كان مولد أوزوريس موضع الاهتمام الكبير من الإله الأكبر (رع) ومناط الأمل في أن يكون على يديه صلاح البشر، بعد أن أعيا الأرباب الأوائل صلاحهم**"، ثم تذكر دوره العظيم في بلاد وادي النيل: "**لقد كان سكان وادي النيل أحادا مستوحشين لا يكفون عن التنازع والتناحر فيما بينهم، وكانوا لا يجدون- إلا بشق الأنفس- ما يسد أرماقهم من الصيد ومن نبات الأرض، فجمع شتاتهم في قبائل وطبقات، وعلمهم الزراعة التي كفلت لهم وفرة الطعام، وحمتهم**

[1] - مجدي كامل، **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص١٣٤.

غائلة الجوع الذي كان يدفعهم أحيانا إلى أكل بعضهم البعض، وابتدع لهم آلات الفلاحة والحرث، ليكثر من الأرض محصولهم، فكان مما استنبتوه- بفضل إرشاده- القمح والشعير والعنب، فاتخذوا من القمح الخبز الذي أصبح- منذ ذلك الحين البعيد- قوام الغذاء للشعب المصري"، ولم يكتف بذلك بل اتجه إلى الجنوب وقام بمزيد من الاكتشافات وهدى الناس إلى الكثير من الصناعات: "ثم وجه أوزوريس اهتمامه بعد الدلتا إلى الجنوب، فكان من فتح الوجه القبلي أن كشف عن مناجم الذهب والنحاس، فأخذ في هداية الناس إلى الصناعات الأولى، فعلمهم طرائق الكشف عن عروق المعادن في الأرض وصوغ الذهب والنحاس، وصنع الأسلحة للدفاع عن أنفسهم من الحيوانات الضارية فضلا عن اتخاذ ما تدعو إليه الحاجة من الأدوات وآلات الزراعة وفي أثناء ذلك بدأ المرحلة الثالثة فأسس المدن، وأقام النظم، وشرع القوانين، وعلم الناس ما يجب للآلهة من تكريم، واتخذ قاعدة للملك جعلها المركز الديني والسياسي والفكري وقد كان في مقدمة مساعيه الثقافية أن عهد إلى تحوت -(عند اليونان هرمى وهو عطارد إله العلوم والفنون)- أن يجعل للمصريين كتابة يتخذونها للتدوين تيسيرا للتعليم ونشر العلوم والحكمة والفنون، فاخترع الحروف الهيروغليفية، وكان فضل التدوين أن تثقفت العقول وتهذبت النفوس، فتهيأ للناس السمو على شواغل الحياة اليومية ومتطلباتها، والتطلع إلى السماوات للاشتغال بأسمى العلوم وهو علم النجوم، مما أتاح لهم مجاوزة حدود مصائرهم الأرضية والعروج بأرواحهم نحو الباب المفتوح على اللانهاية والحياة الأخرى الأبدية عليهم وإلى جانب أوزوريس قامت "إيزيس" أخته وزوجته معا تعينه أحسن العون في سعيه مما جعلها أهلا لأن يقترن اسمها على الدوام باسمه، فبينما كان الزوج يرسي قواعد الدولة، كانت هي مقبلة على تحقيق كيان الأسرة بما سنته للزواج من سنن وروابط ثم هي التي علمت أفراد الأسرة طحن الحنطة وعمل الخبز منها، كما زودتهم بالمناسج وغيرها من الوسائل لصنع ما يكتسي به الناس من اللباس وخاصة الكتان واتخذت إيزيس لمعالجة أمراضهم وتخفيف أوجاعهم بعض الوسائل الطبية والسحرية، وكذلك علمتهم السكنى في الأبنية وضرورة تمهيد الطرق وأمثال ذلك مما تقتضيه الحياة الاجتماعية والعمران وكان أوزوريس -في أثناء ذلك- قد شمل بعنايته تنظيم

العبادات الدينية فوضع شعائرها وطقوسها. وهكذا لم ينقض وقت طويل حتى ظهرت آثار هذه الإصلاحات كلها في ازدهار الحضارة المصرية"، وكعادة القادة الصالحين المصلحين من العرب الأوائل لم يقتصر "أوزيريس" في مشروعه الحضاري على أرض وادي النيل، بل أمتد خيرُه إلى الآخرين ليمنحهم ما لديه من العلوم وفضائل الأخلاق، ولعل هذا ما يفسر وجود اسم "هرمز" -وزيره الكاتب ومرافقه في هذا الفتح العالمي- في أكثر من بقعة من بقاع الأرض: **"ولما أن اطمأن أوزوريس إلى ازدهار الحضارة في مصر بقسميها شمالا وجنوبا، اعتزم الخروج لنشر هذه الحضارة في غير مصر من أقطار الأرض. فأقام إيزيس على الحكم في مصر نائبة عنه ومضى هو للفتح العالمي ومعه وزيره الكاتب "تحوت" حامي العلوم والفنون والحفيظ على القوانين والمرموز إليه بطائر "أبو منجل" "إيبيس"، واصطحب كذلك حليفيه من أهل القتال وهما أنوبيس الخادم الأمين في السراء والضراء، الذي يحسن الدفاع والمطاردة، المرموز إليه هنا بالكلب السلوقي الضخم الأسود، وكذلك الذئب المقاتل المغوار "أب-واوت". ولكن الحملة مرت بسلام، فهي لم تتحرك بدافع الانتقام، بل لإقامة الحضارة ونشر المدنية. فلم يعتمد فيها أوزوريس على السلاح، بل كان يأخذ الخلق بالحسنى والإقناع، حتى دانوا له أجمعين، وانتظمت أمورهم، واستتب النظام في سائر البلاد، وعم الخير العباد في الكون كله"**، ثم يتقمص أوزيريس دوراً آخر لشخصية أخرى في حقبة تاريخية مختلفة، ولكن الأسطورة تواصل سرد الأحداث بأسلوب قصصي وكأنّها وقعت متسلسلة في حقبة زمنية واحدة فتقول: **"عاد أوزوريس عودة الظافر المنصور من حملته خارج مصر لنشر الحضارة والمعرفة في أقطار العالم المعمور. ويبدو أن أخاه الشرير (ست) كان يتابع هذا النصر تلو النصر، وقد أكل قلبه الحسد لأوزوريس وأوغر صدره، فهو أمام هذا المزيد من التوفيق قد امتلأ ضغينة وحقدا على أخيه بما ليس بعده من مزيد. ولا غرو فقد كان (ست) على النقيض من أوزوريس، ومن أجل ذلك كان الأول من حيث الرمز الطبيعي ممثلا للنيل المخصب بتربته المخضرة الوافرة الإنتاج، أي رمز الإخصاب، ومن ثمة كانت خلاصة القول فيه: أنه ممثل للخير عامة. وكان الثاني ممثلا للصحراء القاحلة برمالها المحمرة المحرقة، وأعاصيرها الثائرة المهلكة، فهو رمز العقم، ومن ثمة كانت خلاصة القول فيه: أنه ممثل للشر عامة،**

فلم تكن مندوحة– عاجلا أو آجلا- من قيام الحرب بين الشقيقين، الإله الأسمر المخضر أوزوريس والإله الأحمر المصفر (ست)"[1]، ويكفي قليلٌ من التأمل في بعض الكلمات لفك شفرة هذه الأسطورة، فـ"ست" هو ممثل الصحراء المحمرة المحرقة والإله الأحمر المصفر في إشارة واضحة إلى النار التي منها خُلق، وأعاصيرها الثائرة المهلكة وهي الشهوات، فهو الشيطان الذي أكل قلبه الحسد على الإله الأسمر (آدم)، ممثل الخير عامة، (فعمد إلى حيلة غادرة أوقعه في حبائلها أثناء وليمة دعاه إليها) وهي المعصية الأولى، ولسنا هنا بصدد فك رموز الأسطورة كاملة وإنّما للدلالة على تداخل الأحداث والشخصيات في الأسطورة الواحدة مما يشوّش الفهم ويربكه فيخرج القارئ بنتائج غير صحيحة.

خامساً- مكانة المعلّمين

لقد كان للمربي والمعلّم مكانة خاصة عند العرب، كانوا ينظرون إليه بعين القداسة، وكانت مقولتهم المشهورة: "**من علمني حرفا كنت له عبدا**" تكشف عن المقام السامي الذي تبوأه المعلّم في النفوس، وذلك لما كان يضطلع به من مسؤولية تعليم الناس العلوم المختلفة التي تنفعهم في معاشهم ومعادهم، ودعوتهم للتحلي بالأخلاق الفاضلة، وتحرير النفس من أسر الشهوات والطواغيت، والعمل على إرساء قواعد العدالة الاجتماعية ومساعدة الفقراء والمحتاجين والدفاع عن المظلومين حسبما تقتضيه حالة كل مجتمع آنذاك، تلك كانت مهمة الأنبياء والرسل والصالحين المصلحين من أتباعهم طوال التاريخ الإنساني يؤدونها انطلاقاً من شعورهم بالواجب لا يبتغون من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، ولهذا نالوا كل ذلك التقدير لما أنجزوه من تغيير للواقع وساهموا به في بناء الحضارة، فلولا وجود المعلّمين لأسنت الحياة ولكان الناس مجرد قطيع وهمج يهيمون كالبهائم، فالمعلّمون هم أعمدة الضياء التي قام عليها صرح الحضارة الإنسانية، فالحضارة خلقٌ وإبداع، وتعطيلُ العقل هو عودة إلى البهائمية والتخلف.

---

[1] – انظر: مجدي كامل، **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص١٣٥-١٣٨.

وكان من شأن هذا التعظيم وهذه النظرة القدسية للمعلّم أن يبقى أثرها ممتداً عبر التاريخ لأحقاب طويلة بعد رحيل هؤلاء المعلّمين، وأن يعمد الناس إلى ابتكار الأساليب التي تحفظ ذكراهم حيةً في النفوس لتبقى تعاليمهم في منطقة الشعور والممارسة، وكان منها أنْ جعلوا من صورهم مُذكِّرةً لهم بهم، فعملوا لهم تصاوير مجسّمة وثبّتوها في الأماكن المرتفعة كنصب تذكاري، ومنها أيضاً تسمية المواقع الجديدة التي كانوا ينتقلون إليها شرقاً وغرباً بأسمائهم لنفس الغرض، ولم يكن صنع التماثيل محظوراً في شرائعهم، فقد كان الجن يعملون لسليمان(ع) ما يشاء من محاريب وتماثيل، قيل إنها صور السباع والطيور الجارحة يجعلونها على كرسيه ليكون أهيَب له، "**وقال ابن عباس: كانوا يعملون صور الأنبياء والعبّاد في المساجد ليُقتدى بهم**"[1] وقد كان في الكعبة صور وتماثيل، منها تمثال إبراهيم وإسماعيل، ومنها صورتا العذراء والمسيح[2] وقد ارتبطت هذه التماثيل والصور على الدوام بدور العبادة سواء بوضعها فيها أو بالاستفادة من مقابر أولئك المعلّمين المصلحين وتحويلها إلى أماكن للعبادة.

وإذا ما قمنا بوضع الصورة في إطارها الصحيح فإنّا نجد أنّ ما كان يفعله السابقون لا يخرج عمّا يفعله المؤمنون اليوم من زيارةٍ لمساجد الأولياء والأضرحة لتقديم التحية، والصلاة والدعاء، وللتعبير عمّا يكنّونه لهم من عظيم الولاء والتقدير والتبجيل والذي قد يحسبه الناظر إليه من خارج الدائرة أنّه عبادةٌ لهم، وإذا كان ثمة تبرير لهؤلاء الناظرين غير المبصرين في اتهام السابقين بعبادة الأولياء لوجود التماثيل، فلا عذر لهم اليوم في ذلك لعدم وجودها، بعد أن حرّمت الشريعة صنعها وشدّدت عليه خصوصاً في بدايتها لقرب عهدهم بالوثنية خشية استصحاب الحالة السابقة أو حصولها في المستقبل، كما حصل في بعض مراحل التاريخ حين طغت قداسة المعلّمين على عقيدة التوحيد فعبدوهم، في هذه المرحلة يأتي من يذكّر الناس بالتوحيد، كما جاء نوح(ع) إلى قومه منذراً إياهم لمّا انحرفوا عن التوحيد (**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**

---

[1] – الطبرسي، **مجمع البيان**، ج٨، ص٢٠٤.

[2] – الطباطبائي، **الميزان**، ج٣، ص٣٦٢.

وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً)(نوح:٢٣)، وما كانت هذه الخمسة إلا أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا نصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم حتى هلك أولئك القوم وجاء من بعدهم قوم آخرون فعبدوها[١].

سادساً- مكانة الآباء

إنّ من عيوب الباحث افتقاره للدقة العلمية عند معالجة بعض الظواهر، خصوصا حينما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانيّة والحقائق التاريخيّة الممتدة عبر الماضي لآلاف السنين، حيث يصعب إجراء البحث العلمي النزيه، وتكون النتيجة ضياع الحقيقة وتشويهها، ومن ذلك ما نُسب إلى العرب الأوائل من عبادة الأجداد بعد أن عجز الباحثون الأجانب عن استيعاب ظاهرة اعتزاز العربي بنسبه والمحافظة عليه، ذلك الاعتزاز الذي لم يخضع في يومٍ ما لمعايير عرقيّة، وإنّما خضع دوماً للمعايير الأخلاقية والإنسانية، فقد كان العرب الأوائل يعترفون بوحدة الأصل البشري والتي لخصها أخيرا الحديث النبوي الشريف: (**كلكم لآدم وآدم من تراب**)[٢]، ولهذا لا تجد في تراثهم أي أثرٍ لتمييز عرقي بين البشر.

يقول الدكتور أحمد داوود: "لقد كان شعور العربي بالتفوق نابعاً من إدراكه لمضمون هذا التفوق الإنساني في التعامل مع الآخر. لقد وعى ذلك منذ آلاف السنين، أبدع خلالها مجموعات من النظم والتشاريع مارسها في الواقع، في الوقت الذي كانت تحيط به قبائل وشعوب لم تتجاوز درك الهمجية مما جعله يدفع الثمن جد فادح، ونهضت في نفسه إرادة أن يكون رائداً ومعلماً، وأن يهدم بالسيف الحدود أمام الكلمة المضيئة، وأن يغزو بتلك القيم أذهان العالم القديم كله. ومن هنا نبع إيمانه القديم بأنه صاحب رسالة إلى العالم، وأثبت ذلك عمليا أكثر من مرة وعلى مدى التاريخ.

---

[١] - الطباطبائي، **الميزان**، ج٢٠، ص٣٥.

[٢] - ابن شعبة الحراني، **تحف العقول**، ص٣٤.

إن اهتمامه بالنسب لم يكن إلا من قبيل تعلقه بمكارم ذلك النسب الإنسانيّة التي تتحدث بها العرب. فكما أن اهتمامه بنسب فرسه يثبت له أنه جواد (معطاء)، وأنه كريم (معطاء)، فإن اهتمامه بنسبه هو كان من قبيل هذا الجود وهذا الكرم، حتى صارت صفة الكرم ملازمة له ولفرسه معاً، فيقول: فرس كريم، وفارس كريم النسب"[1].

فالإنسان العربي كان يختار من بين آبائه وأجداده أولئك المتميزين مناقبياً فينتسب إليهم، وامتد هذا العرف حتى أيام الرسول محمد(ص) الذي تفصله عن جده هاشم عدة آباء فكان ينتسب إليه لما تمتع به من أخلاق وعُرف عنه من نصرة للمظلوم وغوث للفقير حتى أنه كان يهشم الثريد باللحم ويقدمه إلى الفقراء بمكة ومنه سُميّ هاشماً.

وفي معرض رده على هذا السؤال: هل كان العرب الأموريون وغيرهم يعبدون أولئك الأجداد بحق، ويجعلونهم في مرتبة الآلهة؟ يقول الدكتور أحمد داوود: "إنّ كل الدلائل تشير أنّ لا ... إنّ تعظيم وتقديس الآباء الذين يتفوقون في مجال ما قد يكون فيه خير للبشر، أو يمتازون بشمائل إنسانية وأخلاقية معينة، تصلح لأن تتخذ قدوة للناس جميعاً، كانوا يحتلون مراتب خاصة، وتبنى لهم قبور خاصة متميزة، أو مقامات، وتقدم عندها الذبائح وتوزع على الفقراء تعبيرا عن الاقتداء بإحسانهم وبإنسانيتهم. ثم تطورت تلك العادات بعد استغلالها من قبل أناس معينين وجدوا فيها مكاسب خاصة معينة، فكرسوا أنفسهم لخدمة مقام هذا الجد أو ذاك، يذبحون الذبائح بالطرق التقليدية الصحيحة، ويقيمون مراسم الصلاة، ويأخذون النذور من أموال أو حلي أو زيت أو خمر أو أضحيات، ويشرفون على التوزيع، ويضفون على تلك المقامات مواصفات معينة متميزة، تحقيقا لأهداف خاصة يسعون إليها: كأن يجعلونها تتفوق على غيرها، فتجذب الناس إليها أكثر من غيرها، ثم يضفون عليها نوعا من الأعمال الخارقة والمعجزات ويجعلونها تتخصص بأعمال معينة كأن تشفي مرضى العيون أو المشلولين، أو تجعل العواقر من النساء ينجبن الأولاد ..."، ثم يضيف

---

[1] - أحمد داوود، **تاريخ سوريا القديم**- تصحيح وتحرير، ص١١٥.

أن الظاهرة هي نفسها اليوم منتشرة في شتى بقاع الوطن العربي.. "وهذا يشجعنا أكثر على القول بأنه ليس صحيحا ما يقال عن العرب الأقدمين من أنهم كانوا يعبدون آباءهم، إلا إذا صح ذلك على العرب اليوم مسيحيين ومسلمين"[1].

لقد عبّر العرب الأقدمون عن اعتزازهم بالمتميزين من أجدادهم بالاحتفاظ بأسمائهم عبر إطلاقها على الأبناء- كما نفعل اليوم- وكان القصد من ذلك هو الاحتفاظ بمناقب صاحب الاسم والتذكير بأفعاله الخيّرة، لقد كان العرب ينظرون إلى هؤلاء الأجداد نظرة التقدير والإجلال، الأمر الذي فسّره غيرُهم بجهل أو بقصد بما دعوه (عبادة الأسلاف)!

❖ انحراف الكهنة

إنّ ظاهرة انحراف بعض الكهنة ورجال الدين، في بعض منعطفات التاريخ، ساهمت في استمرار حالة الشرك وعبادة الآلهة المتعددة عند أقوامهم. صحيحٌ أنّ انحرافهم لم يكن عقائدياً في أصله وإنّما كان انحرافاً سلوكياً أدى في نتيجته إلى تخليهم عن القيام بدورهم الصحيح في الأخذ بأيدي الناس نحو الصراط المستقيم والعقيدة الحقة حيث اشتغلوا بأمور الدنيا عن الدين، فقد كان كهنة المعابد يحتفظون بالأسرار الدينية والحقائق الربانية والتوجيهات العبادية في المعابد، ولم يكن متاحاً لعامة الناس معرفتها إلا بواسطتهم، وكان على الكهنة أن يفسّروا النصوص الدينية الأصلية للناس بأسلوب يسهل عليهم فهمه، الدور الذي لم يؤدّه الكهنة كما ينبغي، بل استغلوا مكانتهم الدينية في أعين العوام لأغراض شخصية، فقد كان منصب الكاهن- كما يقول (ديورانت)- "ينتقل في الواقع إن لم يكن بحكم القانون، من الأب إلى الابن، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن، بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسي، أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها. وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التي تقدم للآلهة، كما كانت

---

[1] - أحمد داوود، **تاريخ سوريا القديم**- تصحيح وتحرير، ص٢٧٠.

لهم موارد عظيمة من إيراد أطيان الهياكل، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية. وإذ كانوا معفين من الضرائب التي تجبى من سائر الناس ومن السَخَرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم من المكانة والسلطان ما تحسدهم عليه سائر الطبقات"[1].

وهذا ما أطلق العنان لهؤلاء الكهنة لممارسة ما يعزّز هذا الوضع ويكرّسه لولا تدخّل السلطة السياسية أحيانا لوضع حدٍ لهذا الاستغلال، كما فعل (أوروكاجينا) الحاكم الصالح الذي يخاف الآلهة- كما يصفه المؤرخ السومري-[2] وهو ملك (لكش) الذي "أصدر المراسيم التي تحرم استغلال الكهنة لكافة الناس، وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب "**ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولي على ضريبة من الفاكهة**" وخُفضت رسوم دفن الموتى إلى خُمس ما كانت عليه، وحرّم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية"[3].

اشتغل الكهنة بدنياهم عن خدمة الدين، بل وظّفوا الدين لخدمة الدنيا فتنافسوا في إسباغ الصفات الإلهية الكثيرة على إلههم بغية دفعه لتصدّر باقي الآلهة كيما يصبح إلهاً عاماً للبلاد وليس إلهاً محلياً فقط، لما يؤمّنه ذلك من نفعٍ مادي أكثر يأتي من القرابين والنذورات والهدايا التي تُقدم لآلهة هذا المعبد أو ذاك، وطالما كانت المصلحة عند هؤلاء المنحرفين هي الأهم وليس المبدأ كانت غايتهم استرضاء العامة بالسكوت عن تصحيح انحرافاتهم وحتى العقائدية منها، كما حدث حين زادت قداسة الأولياء الصالحين في نفوس العامة لتصل بالتدريج إلى درجة التأليه، أو حين طغت الرموز المادية التي استخدمها الأولون للتعبير بها عن معاني كبيرة، كالقمر- مثلاً- وكانوا يقصدون به النور الإلهي، أو الشمس كرمز لواهب الحياة أو حتى الثور كرمز لعقيدة الخصب والخير، طغت هذه الرموز المادية على المعنى المراد منها، ومع تقادم الزمان أخذ العامّة بظاهرها بينما غاب المعنى، وغاب معه دور الكهنة في تحمّل المسؤولية

---

[1] - ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مج١، ج٢، ص١٦١ .

[2] - صمويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص١١٠ .

[3] - ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مج١، ج٢، ص١٧ .

وتصحيح المعتقدات الخاطئة ورسم الصورة الواضحة للعقيدة بالطريقة التي يستوعبها الناس، وكما يقول أدولف إرمان: "وجه علماء الكهنة المتفقهين في الدين نفس العناية إلى قصص الآلهة فنظموه ولكن ليس بالطريقة التي تقرّبه إلى الأذهان، فما ارتبط منه بحياة الشعب أهملوه وجعلوا منه موجزا مشوّهاً، ثم سعوا إلى تحقيق ما بدا لهم مهماً محاولين تفسير ما أطلق عليه من أسماء، ووجدوا ضالتهم دائماً فيما نسبوه إلى الإله من أقوال وأعمال"[(١)].

وليس خافياً ما فعله الكهنة اليهود من تحريف في العقيدة أنكره عليهم أنبياؤهم، وإنّ توراتهم لتشهد عليهم، إذْ تضمنت الكثير من أقوال أنبيائهم في وصف انحرافاتهم، منها مثلاً: "**الكهنة لم يقولوا: أين هو الربّ؟ وأهل الشريعة لم يعرفوني، والرعاة عصوا عليّ، والأنبياء (أي المتنبئون الكذبة) تنبّأوا ببعل وذهبوا وراء ما لا ينفع**"(أرمياء٨ :٢).

إنّها مسئولية العالم العارف أن يظهر علمه حين يجهل الناس، ويقودهم إلى الله سبحانه في مسيرتهم الإيمانية، وهذا ما فعله المعلمون الأوائل من الأنبياء والرجال الصالحين على مدى التاريخ فكانوا بحق علامات مضيئة أنارت تاريخ البشرية من ظلمات الجهل والتخلف فاستحقوا بذلك أعظم التقدير والإجلال.

❖ إشكال قرآني ..

وفي الختام قد يرد البعض على مقولة وجود التوحيد وتواصله منذ القدم بالاستشهاد بآيات القرآن الكريم التي تذكر نماذج كثيرة للشرك وعبادة الأوثان منذ نوح(ع) مثل قوله تعالى:

(وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) (نوح:٢٣).

و**(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)** (الأنبياء:٥٢).

---

(١) – أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص١٤٨.

و(**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً**)(العنكبوت:١٧).

و(**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**) (الأعراف:١٣٨).

و(**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**) (التوبة:٣١).
و(**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**) (الأنبياء:٩٨).

و(**قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) (فصلت:٩).

وبوجود الأصنام على ظهر الكعبة في الجاهلية قبل البعثة حتى بلغت ٣٦٠ صنماً تُعبد من دون الله.

كما يؤكّد القرآن في الكثير من آياته بأن (**أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**)(الرعد: ١)، (**وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**)(آل عمران:١١٠)، و(**كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ**)(الروم:٤٢)!.

وفي الرد على ذلك نقول: إنّ منطق الآيات لا ينفي وجود الموحّدين حيث قالت: أكثر الناس ولم تقل: كلّهم، مما يعني وجود فئة مؤمنة وإن قلّت. ثم إنّ هناك نوعين من الانحراف أصاب السابقين، وهما إلى الآن سبب الانحراف عن جادة الحق: انحراف عقائدي وهو الشرك، وانحراف سلوكي وهو الظلم سواء وقع على النفس أو الآخرين. وبينهما علاقة تكون واضحةً مرةً، لما بين الشرك والظلم من تلازم، نتيجة غياب الرقابة الذاتية (الإيمان) وهذا ما حذّر منه لقمان الحكيم ابنه حينما قال له وهو يعظه: (**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**)(لقمان:١٣)، ومرة أخرى تكون العلاقة بينهما غير واضحة لخفاء صورة الشرك، فالإنسان في هذه الحالة مؤمن بالله ومتعبد له حيناً، وظالم لنفسه ولغيره أحايين كثيرة نتيجة ضعف الإيمان، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: (**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**)(يوسف:١٠٦).

فإذا ما جمعنا هذين النوعين معاً كانت المحصلة كالتالي:

(- **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**)(البقرة: ٢٤٣).

(- **وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**)(آل عمران:١١٠).

(- **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**)(الأنعام: ١١١).

(- **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**)(الأنعام:١١٦).

(- **وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**)(الأعراف: ١٧).

(- **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**)(هود: ١٧).

(- **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**)(النحل: ٨٣).

في هذا الإطار نفهم وصم القرآن الكريم لأكثر الناس بالكفر والفسق والجهل والضلال، على أن أغلب الآيات لا تتحدث عن أكثرية مطلقة، وإنما أكثرية ضمن حقبة زمنية محددة أو فئة معينة متحدَّث عنها.. كقوله تعالى: (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ**)(الروم:٤٢) فليس المقصود بالضمير في (**أَكْثَرُهُمْ**) هم الناس مطلقاً منذ آدم حتى وقت نزول الآية، فالآية بصدد الدعوة إلى السير في الأرض والتفكّر في عاقبة الذين من قبل، أي عاقبة المكذبين والمجرمين والمفسدين والظالمين والمنذَرين كما في آيات أخر.. فالكلام إذن عن الذين أُهلكوا من قبل، هؤلاء كان أكثرهم مشركين.

وكان للشيطان اللعين دوره الأكبر في رسم خطوط الانحراف والصد عن عبادة الله الواحد منذ أن طُرد من الجنة حيث أعلن حينها عن برنامج عمله القادم (**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**)(الأعراف:١٦، ١٧)، القائم أساساً على التزيين والتضليل وتسويق الأماني مستغلاً غرائز الإنسان التي تشدّه للاخلاد إلى الأرض جاعلاً منها طابوراً خامساً يخرس صوت الفطرة والعقل، فراجت بضاعته عند الناس وصدق ظنّه فيهم، إلا عباد الله منهم المخلصَين وأولي البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض فقد ظلوا مستمسكين بحبل التوحيد ومتواصين به، جاهدين ألاّ تنطفئ شعلة الإيمان التي أوريت منذ آدم وإن مثّلوا قلةً في

عصور كثيرة. فالآيات القرآنية التي تتحدث عن شرك السابقين وعبادتهم الأوثان واتخاذهم أرباباً من دون اللّٰه سبحانه، إنما تعبّر عن محطات الانحراف وهو في أجلى صوره، وهي المحطات التاريخية التي بُعث فيها الأنبياء والرسل للتذكير بالإله الواحد الذي لا شريك له، لذلك كانت أولى كلماتهم إلى أقوامهم: (**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**)(الأعراف: ٦٥)، فالدعوة واحدة والمخاطب بها هي هذه الأمة الواحدة منذ آدم وحتى يومنا هذا، هذه الدعوة أجملتها آية الأنبياء بقولها: (**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**) (الأنبياء:٩٢).

الخاتمة

لم يكن الإنسان بعد نفخ الروح فيه يوما ما فاقداً القدرة على الاتصال بالله سبحانه، بعد أن أودع الله فيه البرنامج (الفطرة) المعدّ والمُوَجّه تحديدا لإقامة هذا الاتصال، ويبقى الخيار بيد الإنسان في تفعيل هذا البرنامج فهو من يقرر إقامة الصلة أو قطعها ويحدد قوتها من ضعفها، فهو الكائن المكرّم، حامل الأمانة الإلهية، والمخاطب بالتكليف والمسئول عما أُعطي وخُوّل التصرف فيه.

لقد أُريد لهذا الإنسان ضمن المشروع الرباني أن يكون خليفة الله في الأرض بحق، أُريد له أن يكون المثيل الرباني الذي يقول للشيء كنْ فيكون، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فغدا إنساناً ناقصاً، ولا يزال مشروع الإنسان الخليفة قائماً لم يتوقف منذ أن باشرته الملائكة المدبّرة وهيأت له كل أسباب التكامل، تسديداً لإرادة كل السائرين على هذا الطريق لبلوغ هدفهم في تحقيق الكمال للإنسانية، وقد أثمرت تلك الجهود على مر العصور نماذج حيّة للإنسان الكامل، نجدها في الأنبياء والرسل الذين حملوا الأمانة وبذلوا غاية المجهود في سبيل تحقيق رسالة السماء المتمثلة في تحرير الإنسان وإخراجه من حالة الخلود إلى الأرض، وجعله يتبوأ المقام السامي الذي خُلق له، مستعيناً بطاقات عقله الجبارة ليكون بذلك الإنسان الخليفة.

وظل صراع الخير والشر محتدماً، وخط التوحيد موصولاً بالإنسان الأول لم ينقطع، يتسع حيناً ويضيق حيناً آخر، بفعل دسائس الشيطان الذي أعلن نفسه عدواً للإنسان منذ اللحظة الأولى، وآلى على نفسه تغيير خلقته وإفساد فطرته: (**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ❁ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**)(النساء: ١١٨، ١١٩) في مناهضة صريحة

وجريئة لإفشال هذا المشروع الرباني، فكان لابد من المجاهدة والكدح للمحافظة على تلك الصلة الروحية خالية من الشوائب.

وقد حافظت أمتنا في فترات طويلة من تاريخها القديم على عقيدتها وإيمانها بالله الواحد الأحد، يدل على ذلك الكثير من نصوصهم الصحيحة المثبتة قبل آلاف السنين، كصحف آدم (الكنز العظيم) للمندائيين، ونصوص الحكمة عند السومريين وفي بلاد وادي النيل، وسائر العلوم الربانية التي جاء بها الأنبياء العظام وانطلقوا بها من المركز يجوبون سائر البقاع، يلقنون الناس أسباب المدنية والتحضر ويعلمونهم طرق الزراعة وصناعة وسائل الإنتاج وينظمون علاقاتهم الاجتماعية في نقلات حضارية مضيئة شهدها التاريخ هنا وهناك، فهم مَنْ علّم البشرية الاستقرار بتكوين نظام الأسرة والزراعة والكتابة والفلك والحساب والهندسة والعمارة، ومنهم انتشرت كل تلك العلوم لتشمل العالم كله بجهود المربين والمعلّمين المخلصين، ولولا ذاك لأسنت الحياة!

ولكن النظرة الضيقة للدين اليوم، وعدم التفتح الذهني لقبول الحقائق كما هي، والتسليم دون غربلة وتمحيص بصحة الكثير من الأغاليط التي دُوّنت بشأن تراث السابقين وأساطيرهم، كل ذلك حال دون رؤيتنا للحقيقة الكبرى التي عرفها الأولون وآمنوا وبلّغوا الآخرين بها، وهي أنّ الله واحدٌ لا شريك له، وأنّ دينه واحد، وأنّه فطر الإنسان على معرفته منذ أن خلقه، وتعهده بالهدى ولم يتركه سدى.

فكان لابد من غربلة هذا التراث وقراءته من جديد قراءة تعيد رسم الصورة لتنطق بمضمونها الصحيح، إنْ أُريد لهذه الأمة أن تنهض وتتعافى من أدوائها وتستعيد الثقة بنفسها وتتواصل مع ذاتها والعالم من حولها، وتأخذ موقعها الريادي في الحياة، لأن ما قيل لها من أنه شرك ووثنية وآلهة متعدّدة هي قراءة خاطئة للنص الذي لم يُكتب ليقرأه الآخرون فضلا عن أن يترجموه، وكان الأولى بقراءته هم مَنْ كُتب بلغتهم لأنهم الأقدر على فهمه والأقرب إلى استيعابه، كما فهمه الذين ردّوا على الرسول(ص) دعوته بوصفها (**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً**

وَأَصِيلاً)(الفرقان: ٥)، لِمَا وجدوا بين دعوته وبينها من الشبه الشديد في العلوم والتعاليم[1].

إن إعادة قراءة التاريخ، ومحاولة فهم التراث بات مطلباً ضرورياً، لأنه قراءة لقصة الإنسان، تلك القصة التي تكشف عن يد الرحمة الربانية التي امتدت لرعايته منذ خطواته الأولى على الأرض بما خطّت له من طريق الهدى، ولم تتخل عنه أبداً بل واصلته بالأنبياء والرسل في محطات الضلال التي كانت تهدّد مسيرته الإيمانية، وبذلك راكمت له إرثاً ضخماً من تاريخ ومواقف الأنبياء في دعوتهم لعبادة الله وحده، يزخر به القرآن الكريم مع دعوة صريحة لتقصي الحقائق على الأرض بالسير فيها للنظر والاعتبار (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**)(النمل:٦٩).

❖ وأخيراً لنا كلمة ..

إذا جاز لنا القول أنّ الكفر ملة واحدة وإن تعدّدت طرائق الكافرين وسُبُلهم، لاشتراكهم في محاربة عقيدة التوحيد، فكيف لا يجوز لنا أن نقول: أنّ الإيمان ملة واحدة كذلك، ونجمع المؤمنين في عنوانهم العام وهو الإسلام؟! أيكون دين الله هو المفرّق بين المؤمنين به لاختلاف شرائعهم؟ أم يكون الدينُ هو مَنْ يفرّق -حسب فهومات بعض معتنقيه- بين أهل الشريعة الواحدة بحيث يكفّر بعضهم بعضاً، ويحلّ بعضهم دماء بعض؟! ألا يكشف ذلك عن خللٍ جسيم في فهم الدين ومقاصده النبيلة؟ كيف ندّعي عالمية الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان وهو لمّا يستوعب المنتمين إليه واختلافاتهم؟ أم كيف يمكن لدين الله أن يظهر على الدين كله ولو كره المشركون وهو لمّا يظهر في نفوس أصحابه المؤمنين به؟ أيكون الخلل في الدين أم في المتدينين؟ أين موقع الدين اليوم من الفطرة الإنسانية والله سبحانه يقول: (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ**

---

[1] - انظر بحث: **الأسطورة** - توثيق حضاري، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

الْقَيِّمُ)(الروم:٣٠)؟ ولماذا حصل هذا الطلاق البائن بينهما؟! إنّ السبب يكمن حتماً فيما ذكرته الآية في ذيلها: (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)(الروم:٣٠) إنّه الجهل بالحقيقة، وما يقود إليه من جهلٍ بالدين ومقاصده الشريفة بالضرورة، فنحن نقرأ قول الله سبحانه إلى رسوله الكريم (ص): (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) (الأنبياء:١٠٧)، ولكننا لا نجد لهذه الرحمة من صدى في حياتنا نحن فضلاً عن العالمين!

فأين فينا مصاديق قوله تعالى: (**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**) (آل عمران:٨٤)؟ وأين تقع هذه الآية من نفوسنا وعقولنا؟ وكيف نترجمها في حياتنا اليومية؟ ما هو الذي آمنا به مما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون دون استثناء؟ فالإيمان في هذه الآية مما لا يمكن تجزأته، كما أنّ الآية اللاحقة: (**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**)(آل عمران:٨٥) لا يمكن فصلها عن سابقتها، فالإسلام المتكلم عنه في هذه الآية هو نفسه الموجود في معنى قوله: (**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)، وليس هو الشريعة الخاتمة بالخصوص، ومن يفهم غير ذلك يقع في تناقضٍ يترفعُ عنه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالقرآن كما لا يفرّق بين الأنبياء لا يفرق أيضاً بين أتباعهم إلا من حيث التزام الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح لفرز الصادق في الاتباع من المدعي وذلك في مثل قوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(المائدة:٦٩).

إنّ الإيمان بما أنزل على كل الأنبياء والرسل السابقين هو إيمان بوحدة المصدر، وبوحدة الخط التوحيدي الذي يجمع بين هؤلاء، وأي تفريق بينهم هو هدم لهذا البناء المتكامل ونسف للإسلام من أساسه وهو التوحيد .. وحدة الله ووحدة الأمة الواحدة، فلا غرابة بعدئذ أن تلخّص الآية: (**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)(الأنعام:١٥٣) تلخص

المشــتركات الإنســانية (الوصــايا) وعلــى رأســها التوحيــد (**أَلَّــا تُشْــرِكُوا بِــهِ شَيْئاً**)(الأنعام:١٥١)، والتي جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين، وتجمعها في الصراط المستقيم وهو السبيل إلى الله، وما عداه فسُبُلٌ متفرقة تقود إلى غيره.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - العربية والمترجمة:

١- ابن النديم البغدادي (محمد بن اسحق)، **فهرست ابن النديم**، تحقيق رضا تجدد.

٢- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، **تاريخ الأمم والملوك** (تاريخ الطبري)، بيروت: مؤسسة الأعلمي.

٣- ابن شعبة الحراني (أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين)، **تحف العقول**/ قدم له محمد حسين الأعلمي، ط٥، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤/ ١٩٧٤.

٤- ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا)، **معجم مقاييس اللغة**، ط١ [جديدة مصححة وملونة]، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١.

٥- إبن قيم الجوزية، **الروح**/ حققه وقدم له وعلق حواشيه محمد اسكندر يلدا، الإسكندرية: دار عمر بن الخطاب للنشر والتوزيع.

٦- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن كثير)، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ.

٧- ابن ماجة (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني)، **سنن ابن ماجة**/ تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: نشر دار الفكر.

٨- إرمان (أدولف) ، **ديانة مصر القديمة**: نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة/ ترجمة عبدالمنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ط١ ، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٥/ ١٩٩٥ .

٩- ألدريد (سيريل)، **أخناتون**/ ترجمة أحمد زهير أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ .

١٠- الجبوري (نظلة أحمد)، **جريدة الزمان**، العدد ١٩٠١، التاريخ ٢٠٠٤/٩/١ .

١١- الراغب الإصفهاني، **مفردات غريب القرآن**/ تحقيق صفوان داودي، ط١ ، دمشق: دار القلم والدار الشامية، ١٤١٢ .

١٢- الطبرسي (أبي محمد علي الفضل بن الحسن)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ط١ ، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥ .

١٣- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الأسطورة**- توثيق حضاري.

١٤- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الخلق الأول** - كما بدأكم تعودون.

١٥- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **نداء السراة** – اختطاف جغرافيا الأنبياء.

١٦- حمادة (محمد عمر)، **تاريخ الصابئة المندائيين**، ط١ ، دمشق: دار الوثائق، ١٤٨١/ ١٩٩٨ .

١٧- داوود (أحمد يوسف)، **الميراث العظيم**، ط١ ، دمشق: دار المستقبل، ١٩٩١ .

١٨- داوود (أحمد)، **تاريخ سوريا الحضاري القديم**-١ المركز، ط٢، دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ١٩٩٧ .

١٩- داوود (أحمـد)، **تـاريخ سـوريا القـديم**- تصـحيح وتحريـر، ط٣، منشورات دار الصفدي، دمشق، ٢٠٠٣.

٢٠- ديورانت (ول وايريل)، **قصة الحضارة**/ ترجمة زكي نجيب محمود، ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢/ ١٩٩٢.

٢١- الزيـات (أحمـد حسـن)، **تـاريخ الأدب العربـي**، ط٧، بـيروت: دار المعرفة، ٢٠٠١م.

٢٢- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ١٩٩٧.

٢٣- شحرور (محمد)، **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي** (فقه المرأة)، ط١، دمشق: الأهالي للتوزيع، ٢٠٠٠.

٢٤- الشريف الرضي (محمَّد بن الحسين بن موسى)، **نهج البلاغة**/ شرح محمد عبده، بيروت: دار المعرفة.

٢٥- الصدوق (محمد بن علي بن بابويه)، **التوحيد**/ تحقيق السيد هاشم الحسيني، قم: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، ١٣٨٧.

٢٦- الطباطبائي (السيد محمد حسين)، **الميزان في تفسير القرآن**، ط٢، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٢/ ١٩٧٢.

٢٧- الطبراني (سليمان بن أحمد)، **المعجم الكبير**/ تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط٢، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٤.

٢٨- الطوسي (أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن)، **مصباح المتهجد**، ط١، بيروت: مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١/ ١٩٩١.

٢٩- العقاد (عباس محمود)، **الله**/ إشراف داليا محمد إبراهيم، ط٣، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ديسمبر٢٠٠٣.

٣٠- كامل (مجدي)، **أشهر الأساطير في التاريخ**، ط١، دمشق – القاهرة: دار الكتاب العربي ٢٠٠٣.

٣١- كريمر (صامويل نوح)، **من ألواح سومر**/ ترجمة طه باقر، بغداد، القاهرة: مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي.

٣٢- الكليني (أبي جعفر محمد بن يعقوب)، **الكافي**/ تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار الأضواء، ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

٣٣- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**/ تحقيق شارل بلا، ط١، الناشر: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٩.

٣٤- مظهر (سليمان)، **قصة الديانات**، ط٢، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢.

٣٥- أنس (مالك)، **موطأ مالك**/ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مصر: دار إحياء التراث العربي.

٣٦- الهاشمي (أحمد بن إبراهيم)، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.

٣٧- هورنونج (إريك)، **ديانة مصر الفرعونية**: الوحدانية والتعدد/ ترجمة محمود ماهر طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي.

ثانياً – الانترنيت:

١- موقع النور:

http://www.al-nour.com/bible/torah/torah8.htm

٢- موقع معابر:

السواح (فراس)، **معتقدات الشرق القديم، وثنية أم توحيد:**

http://maaber.50 megs.com

ثالثاً - الإلكترونية:

أ - القرآن:

١ – سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني، الرياض: المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١.

ب – التوراة:

1-Rick Meyers,E-Sword, Ver 7.1.0,2000-2004, http://www.e-sword.net

2-Online Bible Millennium Edition. Version:1.11.90, Mar 28, 2002,http://www.onlinebible.net ./

ج – أقراص مدمجة:

١ – مركز المعجم الفقهي، **برنامج المعجم**، الإصدار الثالث، قم المقدسة، ١٤٢١هـ.

٢ – مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **المكتبة الألفية للسنة النبوية**، الإصدار ١,٥ ، الأردن(عمان) : مركز التراث، ١٤١٩/ ١٩٩٩.

فهرست المحتويات

سلسلة عندما نطق السراة

١. مفاتح القرآن والعقل.

٢. التوحيد ـ عقيدة الأمة منذ آدم.

٣. الأسطورة ـ توثيق حضاري.

٤. الخلق الأول ـ كما بدأكم تعودون.

٥. وعصى آدم ـ الحقيقة دون قناع.

٦. بين آدمين ـ آدم الإنسان وآدم الرسول.

٧. نداء السراة ـ اختطاف جغرافيا الأنبياء.

٨. طوفان نوح ـ بين الحقيقة والأوهام.

٩. مسخ الصورة ـ سرقة وتحريف تراث الأمة.

١٠. اللسان العربي ـ بعد فطري وارتباط كوني.

١١. جنة آدم ـ تحت أقدام السراة.

١٢. ليلة القدر ـ عيد الخليقة.

١٣. اليهود وتوراة الكهنة.

التوحيد
عقيدة الأمة منذ آدم

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٢٩)

إنّ النظرة الضيقة للدين اليومَ، وعدم التفتح الذهني لقبول الحقائق كما هي، والتسليم دون تمحيص بصحة الكثير من الأغاليط المدوّنة بشأن تراث السابقين وأساطيرهم، كل ذلك حال دون رؤيتنا للحقيقة الكبرى التي عرفها الأولون وآمنوا بها، وهي أنّ اللّه واحدٌ لا شريك له، وأنّ دينه واحد، وأنّه فطر الإنسان على معرفته منذ أن خلقه.

فكان لابد من غربلة هذا التراث وقراءته من جديد قراءة تعيد رسم الصورة لتنطق بمضمونها الصحيح، إنْ أُريد لهذه الأمة أن تنهض وتتعافى من أدوائها وتستعيد الثقة بنفسها وتتواصل مع ذاتها والعالم من حولها، وتأخذ موقعها الريادي في الحياة، لأن ما قيل لها من أنه شرك ووثنية وآلهة متعدّدة هي قراءة خاطئة للنصّ الذي لم يُكتب ليقرأه الآخرون فضلا عن أن يترجموه، وكان الأولى بقراءته هم مَنْ كُتب بلغتهم لأنّهم الأقدر على فهمه والأقرب إلى استيعابه.

ولو أنّا أعدنا قراءة تراثنا بتجرّد لأدركنا حقيقة اليد الربانية التي امتدت لرعاية الإنسان منذ خطواته الأولى على الأرض بما خطّت له من الهدى، ولم تتخلَ عنه أبداً، بل واصلته بالأنبياء والرسل في محطات الضلال التي كانت تهدّد مسيرته الإيمانية، فالتوحيد منذ أنْ بدأ بآدم، استمر في بنيه يخبو حيناً ويزهو حيناً آخر، ولكنه لم ينطفئ.

